جاسوس في قصر السلطان

محمد عناني

جاسوس في قصر السلطان

تأليف
محمد عناني

هنـــداوي

جاسوس في قصر السلطان

محمد عناني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٨ ٣٣٥٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور محمد عناني.

المحتويات

تقديم	٧
الشخصيات	٩
المشهد الأول	١١
المشهد الثاني	٢٥
المشهد الثالث	٣٥
المشهد الرابع	٥١
المشهد الخامس	٦٧
المشهد السادس	٨٣
المشهد السابع	٩٩
المشهد الثامن	١١٥

تقديم

على نحوِ ما أذكر في كتابي «**فن الترجمة**» — وما فَتِئتُ أُردِّد ذلك في كُتُبي التالية عن الترجمة — يُعد المُترجِم مُؤلِّفًا من الناحية اللغوية، ومن ثَم من الناحية الفكرية. فالترجمة في جوهرها إعادةُ صَوغٍ لفكرِ مُؤلِّفٍ معين بألفاظِ لغةٍ أخرى، وهو ما يعني أن المترجم يَستوعب هذا الفكرَ حتى يُصبح جزءًا من جهاز تفكيره، وذلك في صورٍ تتفاوت من مُترجِمٍ إلى آخر، فإذا أعاد صياغة هذا الفكر بلُغةٍ أخرى، وجدنا أنه يَتوسَّل بما سمَّيتُه جهازَ تفكيره، فيصبح مرتبطًا بهذا الجهاز. وليس الجهاز لغويًّا فقط، بل هو فكريٌّ ولغوي، فما اللغة إلا التجسيد للفكر، وهو تجسيدٌ محكوم بمفهوم المُترجِم للنص المَصدَر، ومن الطبيعي أن يتفاوت المفهوم وفقًا لخبرة المُترجِم فكريًّا ولغويًّا. وهكذا فحين يبدأ المُترجِم كتابةَ نصه المُترجَم، فإنه يصبح ثمرةً لما كتبه المؤلِّف الأصلي إلى جانبِ مفهوم المُترجِم الذي يَكتسي لغتَه الخاصة، ومن ثَم يَتلوَّن إلى حدٍّ ما بفكره الخاص، بحيث يصبح النص الجديد مزيجًا من النصِّ المَصدَر والكساءِ الفكري واللغوي للمُترجِم، بمعنى أن النص المُترجَم يُفصِح عن عملِ كاتبَين؛ الكاتب الأول (أي صاحب النص المَصدَر)، والكاتب الثاني (أي المُترجِم).

وإذا كان المُترجِم يكتسب أبعادَ المُؤلِّف بوضوحٍ في ترجمة النصوص الأدبية، فهو يكتسب بعضَ تلك الأبعاد حين يترجم النصوصَ العلمية، مهما اجتهد في ابتعاده عن فكره الخاص ولغته الخاصة. وتتفاوت تلك الأبعاد بتفاوُت حظ المُترجِم من لغة العصر وفكره، فلكل عصرٍ لغتُه الشائعة، ولكل مجالٍ علمي لغتُه الخاصة؛ ولذلك تتفاوت أيضًا أساليبُ المُترجِم ما بين عصرٍ وعصر، مثلما تتفاوت بين ترجمة النصوص الأدبية والعلمية.

وليس أدل على ذلك من مقارنةِ أسلوب الكاتب حين يُؤلِّف نصًّا أصليًّا، بأسلوبه حين يُترجِم نصًّا لمُؤلِّف أجنبي، فالأسلوبان يتلاقيان على الورق مثلما يتلاقيان في الفكر.

فلكل مُؤلِّف، سواءٌ كان مُترجِمًا أو أديبًا، طرائقُ أسلوبيةٌ يعرفها القارئ حَدْسًا، ويعرفها الدارس بالفحص والتمحيص؛ ولذلك تَقترن بعض النصوص الأدبية بأسماء مُترجِميها مثلما تقترن بأسماء الأدباء الذين كتبوها، ولقد تَوسَّعتُ في عرض هذا القول في كتبي عن الترجمة والمُقدِّمات التي كتبتها لترجماتي الأدبية. وهكذا فقد يجد الكاتب أنه يقول قولًا مُستمَدًّا من ترجمةٍ معينة، وهو يَتصوَّر أنه قولٌ أصيل ابتدعه كاتبُ النص المَصدَر. فإذا شاع هذا القول في النصوص المكتوبة أصبح ينتمي إلى اللغة الهدف (أيْ لغة الترجمة) مثلما ينتمي إلى لغة الكاتب التي يُبدِعها ويراها قائمةً في جهاز تفكيره. وكثيرًا ما تَتسرَّب بعض هذه الأقوال إلى اللغة الدارجة فتحلُّ محلَّ تعابيرَ فصحى قديمة، مثل تعبير «على جثتي» (over my dead body) الذي دخل إلى العامية المصرية، بحيث حلَّ حلولًا كاملًا محلَّ التعبير الكلاسيكي «الموت دونه» (الوارد في شِعر أبي فراس الحمداني)؛ وذلك لأن السامع يجد فيه معنًى مختلفًا لا ينقله التعبير الكلاسيكي الأصلي، وقد يُعدِّل هذا التعبير بقوله «ولو متُّ دونه»، لكنه يجد أن العبارة الأجنبية أفصح وأصلح! وقد ينقل المُترجِم تعبيرًا أجنبيًّا ويُشِيعه، وبعد زمنٍ يتغير معناه، مثل «لَن تدقَّ الأجراس» for whom the bell tolls؛ فالأصل معناه أن الهلاك قريبٌ من سامعه (It tolls for thee)، حسبما ورد في شِعر الشاعر «جون دَنْ»، ولكننا نجد التعبيرَ الآن في الصحف بمعنى «آنَ أوانُ الجد» (المستعار من خُطبة الحجَّاج حين وَلِي العراق):

آنَ أوانُ الجدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ قد لَفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ
ليسَ براعي إِبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظهر وَضَمْ

فانظر كيف أدَّت ترجمةُ الصورة الشعرية إلى تعبيرٍ عربي يختلف معناه، ويَحلُّ محلَّ التعبير القديم (زِيَمْ: اسم الفرس، وحُطَمْ: أي شديد البأس، ووَضَمْ: هي «القُرْمة» الخشبية التي يَقطع الجزَّار عليها اللَّحم)، وأعتقد أن من يُقارِن ترجماتي بما كتبتُه من شِعر أو مسرح أو رواية سوف يكتشف أن العلاقة بين الترجمة والتأليف أوضح من أن تحتاج إلى الإسهاب.

محمد عناني
القاهرة، ٢٠٢١م

الشخصيات

محمود: نجارٌ مصري.

غازية: مصرية تربَّت في كنف المماليك.

شهبندر: بحارٌ مصري شاب.

حُسْنة: مصرية تعمل في قصر السلطان.

فرج الله: حدادٌ مصري تقدَّم به السن.

عبيد: خياطٌ مصري في منتصف العمر.

أم علية: فتاةٌ تخطَّت الثلاثين.

مسعود: مصريٌّ شاب.

خاتون: أميرةٌ مملوكية شابة.

السلطان، سيف الدين القشقار: ملوك.

علم الدين الباشقردي، عز الدين الكرجي: قُوَّاد من المماليك.

الشاعر: مصريٌّ مأجور.

صِمْغار.

جاسوس.

تتري.

المنادي.

مصري.

الرجل الغامض.

جاسوس مصري.

رجل رقم ١ ورجل رقم ٢: مصريان.

جنود وحراس وخدم وجواري القصر.

الزمان: تقع أحداث المسرحية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إبان حكم المماليك.

المكان: القاهرة.

المشهد الأول

(عندما يرتفع الستار نرى جانبًا من أحد أحياء القاهرة القديمة، مقهى في المنتصف وفي وسطه يجلس الشاعر ممسكًا بربابته وحوله حشدٌ من أولاد البلد وبعض الأطفال. وإلى اليسار ثلاثة دكاكين مفتوحة فارغة، أحدهما لخياطٍ (عبيد) والثاني لحدادٍ (فرج) والثالث لنجارٍ (محمود). عندما يبدأ الشاعر في الإنشاد يخرج الثلاثة فيجلسون على كراسي أمام الدكاكين ثم يندمج عبيد في الإنشاد. على أقصى اليمين رجل يرتدي ملابس أهل البلد ولكنه يمسك ورقةً وقلمًا ويسجل ملاحظاتٍ متفرقة طول الوقت. منظره يوحي بأنه جاسوس. سنسمِّيه الرجل الغامض.)

الشاعر (ينشد):

هجم الأميرُ على التتار كأنه الليثُ الهصورْ.

الجمهور: ليث هصور!
الشاعر: من عَينه انطلق الشرار كأنه سهمٌ جسورْ.
الجمهور: سهم جسور.
الشاعر: وسهام جيش الله نافذة وتسكن في الصدورْ!
الجمهور: في الصدور!
الشاعر: والجند تزحف مثل موج البحر يجتاح الجسورْ.
الجمهور: يجتاح الجسور.

الشاعر: وتؤزُّهم أزًّا فنار الحق حارقةٌ تمورْ.
الجمهور: حارقة تمورْ.
الشاعر: وعلى الأباطح سالت الأنوار وانهزم الغرورْ.
الجمهور: انهزم الغرور.
الشاعر: فاليوم يوم الحق يوم النصر ريان السرورْ.
الجمهور: ريان السرور.
الشاعر: وغدًا يفيض الخير في الدنيا وتنصلح الأمورْ.
الجمهور: تنصلح الأمور.

(الرجل الغامض ينتقل من اليمين إلى اليسار.)

عبيد (يشترك في الإنشاد)**:**

وأنا المقاتل أرهب الفرسان
أُدخلها الجحورْ.

الجمهور: أُدخلها الجحور.
عبيد:

وأنا أنا ... سبع البرمبة لي جناح كالنسور.
(لا يرد أحد.)
لم لا يرد الناس ... هيا ... ردِّدوا.

فرج: عُبَيد أنت خياطٌ ولستَ مقاتلًا فاسكُتْ.
محمود: بل يهوى مثل الشاعر هذا الهذَر الكاذب.
عبيد: اليوم يوم الانتصار الفذ هذا يومُنا.
الشاعر:

غنوا أهازيج الهنا فاليوم قد نِلْنا المنى
وغرَّدَت أطيارنا وزغردَت ألحاننا

(إلى فتاة) زغردي يا منى!
(تزغرد الفتاة.)

فرَّ التتار من السيوف والحِراب والقَنا!
دُكَّت حصون الشرك وانكسر المُهين لعِزِّنا.
من ذا يدين له الزمان بكل مجدٍ مثلنا؟

(إلى الفتاة) زغردي يا منى!
(تزغرد الفتاة.)

عاد الأمير باللواء الحر مجلوَّ السَّنا.
نصرُ الأمير نصرُنا وعزُّه من عزِّنا.

(إلى الفتاة) زغردي يا منى!
(تزغرد الفتاة.)
اليوم قد نِلْنا المنى.
محمود (صائحًا)**:** بل لم تكن تلك المنى.

(هرج ومرج ولغط بين الجمهور.)

الشاعر (في دهشة)**:** ماذا ماذا؟
محمود: أقول هيا من هنا.

(الرجل الغامض يعود إلى مكانه ويتظاهر بشرب الشاي بينما يدس الأوراق في جيبه.)

(ينهض الشاعر وينصرف ومن خلفه بعض الأفراد ويظل بعضهم على القهوة.)

عبيد: هل كنت ترجو الانكسار إذَن؟
فرج:

بل كان ينتظر الخشبْ.
محمود نجارٌ سجين الشك يحيا يا عبيد في الكتبْ!

عبيد:

بل ليس في دماغه سوى الخشبْ!
أَوَلَا تُحسُّ يا محمود بالفَخار لانتصارنا على التتارْ؟
أوَلستَ تحفِل بالقضايا الوطنية؟
إني شهِدتُ ذات يومٍ موقعة
كانت ضرامًا ولهبْ.

فرج: عاد عبيدٌ للخيالْ.
محمود: صمتًا عبيدُ لا تزِدْ.
عبيد: لم لا تفرح مثلي بالنصر الأكبر؟
محمود:

النصر عبيدٌ؟ أين النصر؟
كم قيل لنا قد جاء النصر
وبخير الشام امتلأ البر،
كم قيل لنا صفَت الدنيا
وسلِمْنا شر الزمن الأغبرْ
(يُخرج الغامض الأوراق ويسجِّل بحماسٍ وعيناه لا تبعد عن محمود وأذنه مفتوحة لكلامه بالذات.)
كم قيل لنا غاب التتر ببطن الزمن وولُّوا،
لم تَعُد التتر تحارب ... يئسوا،
لو كان النصر حليف الأمراء اليومْ
أو كان حليفهمُ بالأمسْ،
أو كان حليفهمُ يومًا ما،
ما عانينا هذي الضائقة القصوى
وقطفْنا بعض ثمار النصر،
لكنَّ الكذب صريحٌ
وقحٌ وصريح ومباشرْ
(يتحمس الرجل الغامض في الكتابة.)

إذ يُعلن هذا المملوك السافل عن غزوة،
قد يخرج حقًّا للحرب وقد لا يخرج ... لا ندري،
لكنَّ الشاعر يأتي كي يُنشد نفس الأشعار المصنوعة
نفسَ الألفاظ المسجوعة،
يدعو فيها للفرح يُبشِّر بزوال الغمة،
بينا يسغب هذا الشعب ولا يجد اللقمة.

فرج: إنا حقًّا في ضائقة يا محمود ولكنْ ...
عبيد:

لكنَّ الحرب تكلفنا بعضًا من قوتْ،
لا بد لنا أن نتحملْ ... أن ندفع ثمن النصرْ.

محمود: النصر الموهوم ... الكاذبْ؟
فرج:

لن يقنع محمود إلا إن جاءت سفن الأخشابْ
(يضحك) لا تُرضيه إلا الأخشابْ،
عقلٌ خشبي من طول معاشرة الأخشابْ،
ولماذا يا أحبابْ؟
حتى يجمع شمل الأحبابْ،
فعليَّة تنتظر جهازًا من خشب الزانْ،
لا يُرضيها خشب الموسكي الأبيضْ!

(الغامض يسجل بحماس في الدفتر.)

عبيد: ما عيب الموسكي يا محمودْ؟
محمود:

بل ليتَ الموسكي موجودْ،
السوق بمصر يا أصحابي فارغْ
لا يوجد نجارٌ يعملْ،

وقريبًا — إن لم تأتِ الأخشابْ —
لن تجد فتاةٌ من يتزوجها،
أنا لا أحزن لوقوف الحالْ؛
فقد اعتدتُ الشدة،
لكني أحزن للكذب الفاضح.

عبيد:

أفلا يمكن أن تَصدُق أخبار النصرْ؟
اسألني ... فأنا حاربتُ مع الأمراءِ
وأعرف كيف تكون الحربْ.

محمود:

الكذب ذميمٌ يا خياطُ،
فأنت تردد ما تسمع من شاعرك الأبلهْ،
تتصور أنك قاتلتَ وخُضتَ الأهوالْ
بينا لم تبرحْ هذا الدكان المعتمْ،
وكذلك فرج الحدادْ.

فرج:

أنا لا أحيا إلا في الواقعْ
أعرف أحوال الدنيا ... لا أخدع نفسي البتة،
هي كالمطرقة على السندانْ
تضرب فينا حين نلين بنيران الجوع!

محمود:

هل المماليك قدرْ؟
مطرقةٌ فوق رءوس البشر؟
تشبيهك الأصيل غير صادقْ

حتى وإن صدَقْ
لا تنسَ أننا ... فيه الحديدُ الساخن.

عبيد:

إن المماليك لنا درع الحياة
يحمون أرضنا وعِرضنا.

محمود: بل يملكوننا.
فرج:

حرٌّ يا محمودُ أنا،
وكذلك أنتَ وأنتَ ... نحن جميعًا أحرارْ.

محمود:

حرٌّ في أن أصنع منضدةً أو كرسيًّا
من غير خشبْ؟
أن أشتريَ القوت بلا مال؟
أن أتزوَّج من أهوى؟
(بمرارةٍ) أو من لا أهوى؟
يا أصحابي إنْ عزَّ القوت وجفَّ الضرع فلا حرية.

عبيد: فلسفةٌ خرقاء.
فرج: وشيوعيةْ!
عبيد:

بل أنتَ لا تعرف التتار،
(يسجل الرجل الغامض ويتابع النقاش.)
لا تعرف الرقيق والجواري والإسارْ.

فرج: محمودٌ لا يعرف إلا الأخشاب.

عبيد:

إن جاءته الأخشابُ اليوم
أصبح حرًّا،
أما إذا وصل التترْ ...

محمود:

يا صاحبيَّ إنَّ ساعدي قوي،
وأستطيع أن أذود عن حياضي إن أتى الخطرْ،
أما الحياة في ظلال القهر فهي الموت والفناءْ.

فرج: قالوا تصلُ الأخشابُ غدًا أو بعد غدٍ فاصبرْ!
عبيد: من عادتها أن تتأخرْ.
محمود:

أصبر شهرًا أو شهرَين،
لكني لم أرَ أخشابًا من أعوام،
ووعود الحكَّام الظلمة لا تخدع إلا الجهلة
بالقصر الأكبر أخشابٌ لا يحصيها العد،
(ينهض الرجل الغامض ويقترب من محمود.)
بل لا يعرف من في القصرْ
(محمود ينظر إليه من طرف عينه ويتظاهر بأنه لا يراه.)
ماذا يبنون بها؟!

(تدخل أم علية ومعهما شاب.)

أم علية: صباح الخير.
عبيد: أم عليةَ هلَّت!
محمود: وعريس ابنتها الموعودْ.

فرج:

مسعودْ؟
أهلًا أهلًا.

أم علية: الموكب أخَّرني لكن نقودي جاهزةٌ.
عبيد: أي نقود يا أم علية؟
أم علية: ثمن الأشياء.
عبيد: (ساخرًا) أية أشياء؟
أم علية: ثمن جهاز علية طبعًا.

(الغامض يخفي الأوراق في جيبه.)

فرج: أهلًا أهلًا.
أم علية:

البنت المسكينة تنتظر شهورًا
والمنكود يوفِّر مهرهْ؛
إذْ لا يملك ملِّيمًا أحمرْ،
لُكَعي متعوسْ
حجته في التأخير جهاز عروسْ،
ها هي ذي الأموالْ.

(يدخل المنادي ويتجمع بعض الرجال ويندسُّ بينهم الغامض.)

المنادي:

يا أهل البَر انتبهوا!
غرقَت سفن الأخشابْ،
أغرقها سلطان التتر بعُرْض البحرْ.

محمود (ساخرًا)**:** في يوم النصر الأكبرْ؟
رجل ١: ضاعت أخشاب العامْ.

رجل ٢: لن يجد النجار الخشب اللازم للأعراسْ.
مسعود:

غرقَت سفن الأخشابْ ... أسمعتم؟
لن يتزوج إنسانٌ هذا العام.

أم علية: ماذا ماذا؟ لن تتزوج بنتي.
مسعود:

أتزوجها لكنْ ...
لا توجد أخشاب للعفشْ.

أم علية: تتزوجها فوق السطح
في العِشة ... في الحوشْ.

(يخرج المنادي.)

عبيد: غرقَت سفن الأخشابْ؟
فرج: أهلًا أهلًا.
مسعود: لا توجد ألواح تصلح للعفش.
أم علية:

لا يوجد لوحٌ غيرك،
تخطبها عامًا أسود
وتكلفني ما لا أحتمل ولا أقدرْ،
ثم تريد الهرب الآن؟

مسعود: هذا محمود النجارْ ... ليس لدَيه خشبْ.
محمود:

لا تقلق يا مسعود سآتي بالأخشاب من القصر الأكبرْ!
القلعة يحرسها ألف كريهٍ أصفرْ،
وأنا مهما أتخفَّى نجارٌ أسمرْ،

كلا لن أذهب للقلعة
سأوافي أهل القصر على غفلة
وأطالب بالحق الثابت لي ... ولكم
بعض الأخشابْ ... لن أطلب أكثر من هذا،
أعرف أن السلطان الليلة يعصره الهم
بعد هزيمته النكراء بعُرْض البحرْ،
ولذلك لا بد له أن يسمع صوت المنطقْ،
الخشب المخزون بحوش القصر كثيرْ،
وإذا أعطاني بعضه
زُفَّ المسعود إلى بنتكِ يا أم علية،
سأوافي أهل القصر غدًا.

عبيد (في ذهول): مجنونٌ يا محمود.
فرج: ماذا تنوي أن تفعلْ؟
عبيد:

هل تذهب للموت برِجلكْ؟
اصبر يا محمودُ تعقَّلْ.

(الغامض يقترب منهم ويتسمَّع ما يدور.)

فرج:

لن يسمح لك أحدٌ بدخول القصرْ،
إن كنت تريد مقابلة السلطان فهذا أمرٌ يحتاج لترتيبْ.

مسعود: أعرِف رجلًا يعمل كنَّاسًا في حرس القصرْ.
أم علية:

ما لكَ أنت وهذا؟
هل طاش صوابكْ؟
محمودٌ رجلٌ مجنونْ.

محمود:

لا تخشَوا شيئًا يا أصحابُ من السلطانْ،
فأنا أعرف كيف أخاطبه،
سأقول له الحقَّ بلا زخرفْ.

مسعود: لمَ لا آتي معكَ إذنْ؟
أم علية:

اسمع يا مسعود!
إنك تعمل عندي في المشغلْ
وعليك ديونٌ باهظةٌ لا تحتمل التأجيلْ،
هيا نحن الآن ويكفينا ما حلَّ بنا.

عبيد: لكن أظلمَت الدنيا والليل على الأبوابْ.
محمود:

لا تخشَوا شيئًا قلتُ لكم،
سأوافي السلطان غدًا عند طلوع الشمسْ،
أما الآن ...
(يتظاهر بالسير على غير هدًى لكنه يقترب من الرجل الغامض ثم يقبض عليه فجأة.)
فلنحبِس هذا الجاسوس المتعوسَ بدكان عُبَيدْ.

الغامض: لا لا ... إني أنا ... لستُ أنا.

(يقبض الثلاثة عليه، فرج ومحمود وعبيد.)

محمود:

لن تقضي إلا ساعاتٍ محدودةْ ... في دكان الخياط،
راجِع فيها ما سجَّلتَ من الأخبار ومن أسرار الناسْ،
حتى إن أشرق صُبح الغدْ ... أخرجناكَ سليمًا ومعافًى،

أما إنْ حاولتَ الهرب فويلٌ لك مني،
(يُدخلون الغامض الدكان ويغلقونه عليه.)
موعدنا في الغد بعد صلاة الظهرْ.

(إظلام)

المشهد الثاني

(قصر السلطان. الساحة الوسطى في القصر إلى اليمين. وفي الوسط بابٌ ضخم يتحول إلى عرش الحاكم فيما بعد. وإلى اليسار غرفة يسودها الظلام. في آخرها شباكٌ مغلَق. الأضواء خافتة توحي بقرب طلوع الفجر. عندما يرتفع الستار تخرج حُسْنة (وهي الوصيفة) من غرفة النوم وتتمطَّى وتتثاءب وعندئذٍ يسرع إليها حارس ويُسِر إليها أمرًا فتومئ إليه فيخرج ثم يدخل على الفور شهبندر وهو شاب في ملابس الملَّاحين.)

شهبندر (في توترٍ شديد): حُسْنة! حُسْنة!
حُسْنة:

بل قل صباحَ الخير أولًا،
لم يَطلُع النهار بعدْ!

شهبندر:

ما زلت أعيش بليل الأمسْ،
آهٍ يا حُسْنة.

حُسْنة:

ماذا عندك يا شهبندر؟
كيف تركتَ الملَّاحين ... في هذي الساعة؟

شهبندر:

خطرٌ محدِقْ،
سرٌّ لا يعلمه غيري
(يهمس) جاسوسٌ في قصر السلطانْ.

حُسْنة (في خيبة أمل)**:** كنت أظنكَ جئتَ لأمرٍ آخر.
شهبندر:

أرجوكِ استمعي يا حُسْنة
أحلامي ... أحلامك ... كل غرامٍ عشناه
كل كلامٍ قُلناه ... أمسى مثل سراب الهاجرة الخادعْ،
لن تقلع أي سفينة ... لن نجني ثمن الصبرْ.

حُسْنة (في غضب)**:**

ألهذا جئتَ؟
إن كنتَ سلوتَ حبيبتك فلا داعيَ للأعذارْ.

شهبندر:

ما زلتُ أحبكِ يا حُسْنة،
لكني الآن أسير الهم،
في قصر السلطان اليومْ
جاسوسٌ تَتِري!

حُسْنة (ساخرة)**:** جاسوسٌ واحدْ؟
شهبندر: تترِيٌّ يا حُسْنة.
حُسْنة: جواسيس التتار كثيرْ.
شهبندر:

لكنَّ هذا يختلفْ.
(تنصرف عنه مغضبة فيلاحقها.)

أرجوكِ استمعي يا حُسْنة
الرجل أتى من فترةْ ... وتخفَّى كي يخدع بعض الملَّاحين،
صادَقهم واستمعَ إليهم ... وبما علِم وأخبرْ
أغرق سفن الأخشابْ.

حُسْنة (تقترب منه في ود): لكنك لم تنسَ حبيبتك الحُلوةْ؟
شهبندر (في دهشة):

أنساكْ؟ ولماذا جئتُ إليكِ إذنْ؟
لا يوجد في قلبي إلاكِ ولكنْ ...

حُسْنة: لا تذكُر لكنْ ...
شهبندر: حُسْنة!
حُسْنة:

سأُطمئنكَ إذنْ
لا يخفى شيء في هذا القصر عن العين اليقظة،
عيني لا تغفل وأنا ... أعرف كل الأسرارْ.
لا تقلقْ! اسمع مني ما أحكي.
يعرف سلطان القصر بأمر الجاسوسْ،
وبأن الرجل تخفَّى في عدة أزياءْ؛
زيِّ الملَّاح لدَيكم والنجارِ هنا.

شهبندر: هنا؟
حُسْنة:

أقصد في البندر لا في البحر،
يُحْكِم لهجة أهل البلد وملبَس أهل البلدِ
ويزعم أن له صنعة،
وسيأتي هذا القصرَ على هيئة نجارْ
يطلب بعض الأخشابْ.

شهبندر: أتعرفون هذا كله ولا تحركون ساكنًا؟
حُسْنة:

الكل في القصر على استعدادْ،
لكنهم لا يعرفون موعد الوصول؛
لذا فكل حارس لدَيه أمر أن يمهِّد السبيل لهْ
حتى يرى الذي يريده
ويلتقي بحاكم البلاد.

شهبندر: تبغون أن يعرف كل شيءْ.
حُسْنة: نعمْ.
شهبندر: هذا سَفهْ!
حُسْنة:

بل سوف يعرف الذي نريد أن يَعرفهْ
حتى يوصِّل الذي نريد أن نوصِّلهْ
كأنه مرسالْ.

شهبندر:

سَفهٌ سَفهْ!
أغفلتمْ ما لا يمكن إغفالهْ
فالجاسوس هو التتري الأكبر صِمْغارْ،
ولدَيه حمامٌ زاجلُ ووسائل عِلمٍ عصرية
وجيوشٌ لا حد لقوَّتها تنتظر الأمرْ،
قد أغرق سفن الأخشابْ
في لمحة عينْ،
والآن يجيء إلى هذا القصرْ!
إن يُتركْ ضاع النصرْ
أو يُقتلْ ضاعتْ مصرْ.

حُسْنة: نعرف ذلك!

شهبندر:

لا يعرف أحدٌ شيئًا،
صِمْغارٌ ليس الجاسوس المأجور،
وهو يُمنِّي النفس بأحلام التتر الكبرى
أرضٌ تمتد من النيل الكوثر لمنابع دجلة.

حُسْنة: ونحيط بذلك علمًا يا شهبندر.
شهبندر: ولا تحركون ساكنًا؟
حُسْنة (تقترب في دلال):

شهبندر لِم تشغل نفسك بشئون الدولة؟
أَوَليس لدَينا ما نهتم به غير حروب التتر؟
(في ألم) قد شابت رأسي وأنا أنتظر وصولكْ
وأخاف رحيلكْ
ساعات اليوم طويلة
وهموم الليل ثقيلة.

شهبندر (متأثرًا بكلامها):

حبيبتي يا فتنة العيون
إني أراكِ في تموُّج المياه في النسيمِ
في اصطخاب البحر والسكون،
وأرقب اليوم الذي تَمْضين فيه من هنا
معي،
لكننا أبناء هذا البلد
لا نملك الكثير ... هذا إن ملكْنا أي شيء،
ونستحيل أحيانًا قواربًا تلهو بها الأمواجْ.

(يُضاء النور في الغرفة المغلقة. وترفع الأميرة الستار عنها فنرى الأميرة تتمطَّى.)

الأميرة (صوت من الغرفة): ها هو ذا ... أسمع صوته.

حُسْنة (في حرج وقلق وتوتر): مولاتي تصحو ... هيا يا شهبندر.
شهبندر (يهمس إليها): هل آتي عند الظهر؟
حُسْنة (تومئ موافقة): هيا ... هيا.

(يخرج شهبندر.)

الأميرة (وهي تنظر من النافذة):

ها هو يهبط كالأمل الهائم
يغشى وجه الصبح الحالم

حُسْنة (تتجه إليها): صباح الخير مولاتي.
الأميرة:

صمتًا صمتًا
فالآن سنسمع ألحانه
(عزفُ نايٍ بعيد يتلاشى رويدًا.)
ها هو ذا
أسمعتِ الناي الربَّاني.

حُسْنة: بل كان غناء الكروان.
الأميرة: كان حبيبي يُنشِد للصبح المُشرقْ.
حُسْنة: مولاتي تحلم.
الأميرة: بل أسمع وأرى مثلكْ.
حُسْنة: مولاتي تتخيل ما لا يوجَد في دُنيانا.
الأميرة:

مع أول خيطٍ في الفجر الفضي
ألمح فارسيَ المغوار
ممتطيًا متْن جوادِه،
وبيده سيفٌ بتارْ،
تومض عيناه ببرق الحب،
وبجنبَيه قلبٌ فوَّارْ.

حُسْنة (ساخرة): يتنزه — بسلامته — في الفجرية؟

الأميرة:

في غبش الصبح يطوف حبيبي بالآفاقْ
ينسج من نور الشمس الأشعارْ،
يجمع من فوق الكلأ اللؤلؤْ،
ومن البستان رحيق الأزهار!
وعلى كل جبينٍ ينثر حبَّات العرقِ الساخنْ
كي تورق في الوادي الأشجارْ.

حُسْنة:

مولاتي تحيا في زمنٍ ولَّى،
لا يوجَد في دنيانا فرسانُ الأشعارْ.

الأميرة:

بل هم في كل مكان،
وحبيبي يتخفى عن عين الزمن الغدارْ
يتدلَّى حينًا من طرْف سحابة
أو يخرج من دكان النجار!

حُسْنة:

مولاتي لا تعرف فرسان اليوم،
(تمثِّل ضاحكة) فرسان اليوم لهم بأسٌ جبارْ
يتطاير من أعيُنهم شررٌ من نارْ.

الأميرة:

لكن حبيبي مثل الماء الرقراقْ،
دفَّاق الصبوة كالنبْع الجاري،
سيَّال الروح رحيمًا

وعطوفًا ووفيًّا وكريمًا
مثل النيل المِغداقْ.

حُسْنة: هيهات إذن! لن تجدي ذاك الفارسْ.
الأميرة:

بل هو موجود
أعرفه خيرًا من نفسي،
أعرف عينَيه السوداوَين
وملامحه الخشنة،
وهو أمامي وورائي
يتسربل في أرديةٍ من نسْج يدَيهْ.

حُسْنة: ماذا؟ خياطٌ غلبانْ؟
الأميرة: أو يحمل سيفًا من صُنع يدَيهْ.
حُسْنة: حدادٌ عدْمانْ؟
الأميرة: أو يصنع من خشب الزان أثاثًا.
حُسْنة: نجارٌ كحيانْ؟
الأميرة: بل يتخفى كيلا يعرفه الناسْ.
حُسْنة (بخبث)**:** لكنْ مولاتي تعرفه؟
الأميرة: أعرفه بعلاماتٍ سبعْ.
حُسْنة: إحداها فيه فقط ... أم كل السبعة؟
الأميرة: كل السبعة.
حُسْنة: هل لي أن أعرفها؟
الأميرة:

هو مصريٌّ يا حُسْنة،
يتحدث لغة المصريين،
يتزيا بالزي المصري.

حُسْنة: كذا كذا؟ الفارس يلبس جلبابًا؟

الأميرة: وغطاء الرأس الطاقية.
حُسْنة: أهو إذنْ فلَّاحْ؟
الأميرة: بل من أهل الصنعة.
حُسْنة: حداد أو خياط أو نجارْ؟
الأميرة: وهو صريح لا يكذبْ.
حُسْنة: تلك علاماتٌ خمسْ.
الأميرة: أذكرتُ الشارب واللحيةْ؟
حُسْنة: أله لحيةْ؟
الأميرة:

كلا فهو حليق اللحية،
وله في يده اليمنى شامة
يحسبها الجاهل نُدبة،
لكن الشامة من أثَر العمل الدائبْ،
وهو إذا أخفاها في كمِّهْ
لاحت في يده اليسرى.

حُسْنة:

مولاتي ... هذا لُغز الألغازْ
كم قلتِ الفارس والشهمَ المغوار،
والآن تقولين الحائك والنجارْ؟
هل نبحث عن فارسك المُعْلَم
في الأسواق وفي الحارات؟

الأميرة: بل سوف يأتيني هنا.
حُسْنة: في القصر؟ محالٌ مولاتي.
الأميرة: يأتيني في موعده لا يتأخرْ.
حُسْنة: مولاتي جُنَّت ... جُنَّت مولاتي!
الأميرة: بل وصل الآنْ.

(يدخل حارس. يتردد ثم يحادث حُسْنة.)

الحارس: نجارٌ بالباب يريد لقاء الحاكم.
حُسْنة (تفيق فجأة)**:** نجارٌ طبعًا ... أدخله إلى الإيوانْ.
الأميرة: وصل حبيبي!

(إظلام)

المشهد الثالث

(قصر السلطان وهو مجتمع بالأمراء والحاشية.)

السلطان:

وهكذا ترَون أننا جميعًا قد نُواجه الهلاك،
وقد قضَت مشيئة الرحمن أن نكون كلُّنا هنا،
وأن تكون أيدينا معًا،
فإن ما يهدد الديار من مطامع التتارِ
ليس مقصورًا على فردٍ بعينه،
وربما علِمتُمُ بأمْر ذلك الجاسوسْ.

عز الدين: علِمْناه فور وصوله.
سيف الدين: علِمْناه قبل وصوله.
علم الدين: ومولايَ سوف يعالج أمرهْ.
السلطان: سألقاه حالًا وأسبر غَورهْ.
عز الدين:

لكنَّا لم نعرفْ إن كان رسولًا يبغي السِّلمْ،
أو كان زعيمًا يتحفز للحربْ،
أو كان بحقٍّ جاسوسًا يتشمَّم بعض الأخبارْ.

السلطان:

هذا ما سوف أكاشفكم بهْ
بعد لقاءٍ آن أوانه،
أما الآن فأرجو ألا يتخلف أيُّ أمير
عن موعده في الغدْ،
فأنا أعددتُ العدة وبثثتُ عيوني في كل مكان
حتى لا يعرف أحدٌ مَقصِدنا،
أرجوكم ... أيًّا كان الجاسوس
فأنا أعددتُ له فخًّا
سيساعدنا في تحقيق النصرْ.

(يغمز السلطان إلى علم الدين ثم يخرج مع حاشيته الخاصة.)

عز الدين: قدرٌ لا مهرب منه.
سيف الدين (ساخرًا)**:**

حقًّا؟
قد كُتِب علينا أن نسمع ونطيعْ؟

علم الدين:

لا تقولوا مثل هذا،
نحن في موقع حربٍ
وخلافات الأشقَّاء تُؤجَّلْ.

سيف الدين: أخلافات الأشقَّاء تقولْ؟
عز الدين:

هل قضى ربُّك أن نتَّبعَهْ؟
فيكون السيِّد الأوحد دومًا ونكون الحاشيةْ؟

علم الدين:

لم يقلْ ذاك أحدْ
لكنِ الحال عصيبة
وظروف الحرب تقضي بالتحمُّلْ.

سيف الدين:

أفأمضي خلفه كالتابع المنقاد لا أدري إلى أيِّ بلدْ؟
وبقلبي من ضِرام الحرب جمرٌ متَّقدْ،
وبرأسي خبرة الزمن الذي يحيا بأحلام الأبدْ؟
إن لي من صافن الخيل رباطًا ليس يحصيه العددْ،
وأمامي وورائي من جنود الله حشدٌ مستبدْ،
إن لي فضل الزعامة تشهدان بها ... أجيبا.

علم الدين:

نحن لا ننكر فضلك،
لكنِ الحال كما قلتُ لكم،
وزمام الملك يحتاج إليه.

سيف الدين:

عندما عُدنا غداة الروع نجتاز الفلاة،
وهبطنا بطن وادٍ ليس يبدو منتهاهْ،
هبَّت الريح سَمومًا عاصفة
تملأ الوادي فحيحًا ونباحًا وعواءً،
وغدَا العِثْيَر في الجوِّ سحاباتٍ سوادٍ
تحجب الشمس كأن الكون تاهْ،
زاغت الأبصار وابيضَّت من الخوف الشفاهْ
وبدا الركب شعابًا يذرع المَهمَه في كل اتجاهْ
كلهم ينشد ما يعصمه

كلهم يرجو سبيلًا للنجاة،
وانثنى ذاك المنزَّه يستجير ويستغيثْ:
«أين سيف الدين؟» صاح:
«أين ذاك القائد المغوار أين مضى الكُماة؟»
لم أزلْ أذكر صوتهْ
ضارعًا بل ذاهلًا بل غافلًا عمَّا عَداهْ،
وأنا فوق جوادٍ قد تبهنسْ
يألف الظلمة بالأهوال يأنسْ،
سلْ عيون المُهر كيف وجدتِ صاحبَنا المؤلَّهْ
سلْ ذراعي كيف شدَّته وألقَته على سرجي ذليلًا يتأوَّهْ:
«جئتَ سيف الدين؟» صاح:
«عسكري يا سيف طارت في الرياح
آهِ يا سيفُ رعاك الله للإسلام ... ذُخرًا» ... وبكى
ذلك الحاكم رب السيفِ
فاض الدمع من عينيه كالطفل الصغيرْ،
لم أُغافل صاحب العين الهَتونْ،
بل نفختُ البوقَ واجتزتُ الكتائبْ
حاملًا إياه خلفي بينما صاح النفيرْ
اتبعوا سيفًا إلى حيث يسيرْ،
ونجَوْنا.

علم الدين: قد علِمْنا نُبلك المشهود يا سيفُ غداة الروع.
عز الدين: وعلِمْنا كم بكى القائد رُعبًا.
علم الدين:

وعرَفْنا كيف أخفيتَ عن الركب دموعهْ،
لكنِ الأعداء لا بد لهم من موقعة،
وسيوف اليوم يا سيف تريد القائد الماكرْ.

عز الدين (ساخرًا): ذارف الدمع الغزير؟

علم الدين: صاحب الفكر العميق الداهية.
سيف الدين:

وهل سينتضي الأفكار حتى يهزم التتار؟
يا صاحبيَّ نحن قوم بأسٍ تارِزٍ شديدْ،
والسيف عندنا هو العقل المرجَّح والمرجَّى.

علم الدين:

بل إن سيفنا لا بد أن يكون المكر والدهاءْ،
ومناط عِلمي أنه سيخادع التتار اليوم أو غدًا،
أما شِراكه فالوعد بالسلامْ.

عز الدين:

تقصد أنْ يقبل شرط الهدنة؟
يتزوج بنت التتري الكافرْ؟

علم الدين:

يا عز الدين تمهَّل ... واسمعني يا سيف الدين
هذا الجاسوس هو القائد صِمْغار!

سيف الدين: صِمْغار؟ ... محالٌ يا علم الدين!
علم الدين: بل صِمْغارٌ ولدَينا البرهانْ.
عز الدين: ماذا يفعل في قصر السلطانْ؟
علم الدين:

هذا ما سوف نرى،
والواقع أني أرجو أن تتمهَّل يا سيف الدين
حتى يكشف مولانا السلطان
عن سر الجاسوس التتري.

سيف الدين:

كلا يا أصحاب،
قد بيَّتُّ العزم ولا أحنث في قسَمي
لن أتراجع في مطلبيَ العادلْ،
إني أشجع مَن قاد جيوش الله إلى النصرْ
وبذلك أصبح أصلَحَ من يحكم مصرْ!

عز الدين:

وأنا لن أنقاد إلى السلطان البكَّاءْ
وسأُخلف موعدنا في الغدْ.

علم الدين:

أرجوكما تمهَّلا
لربما لم يُرضِنا هذا
لربما لا بد من مُقاتلٍ صنديدْ
ليثٍ كسَيف الدين يرهب الزمانْ،
لكن أحوال التتار تقتضي الدهاءْ
وليس مثلَ هذا الحاكم الفذ الذكي قائدٌ
يصد صولة التتارْ.

عز الدين: أستودعك الله.

(يخرج مع الحاشية.)

سيف الدين: أنا أقدَر من يحكم ... وستسمع حُكمي بعد قليلْ.

(يخرج مع الحاشية.)

علم الدين (وحده):

زمن الفُرقة والأحقادْ،

التتر على أبواب بلاد الله ونحن شتاتٌ نتناحرْ!
هذا السلطان ولا شك ضعيفْ
(يضحك ويضرب كفًّا بكف.)
لكن لم أشهد من هو أمكر منه،
وهو يخاف على دين الإسلامْ
(يهمس.)
ويخاف على عرشهْ
إن عاضَدْناه قهرْنا التتر وفُزْنا (يتردد)
فزنا؟ سأظل أميرًا يحلم بالمُلك
ويظل كبيرًا ... بل قد تعلو هامته وتَسْمو،
وإذَن لن يجرؤ أحدٌ حينئذٍ أن يفتح فاهْ،
سيسانده كل مماليك الدولة والناسْ،
سيكون الظافر ذا القدْر الأسمى
حافظَ دين الله وحامي أرض الله،
كلا! هذا أمر يحتاج إلى التدبيرْ،
آهٍ يا علم الدين! ماذا تفعل بعد أنِ استحلفك السلطانْ؟
أتخون القسَم وتنكث بالعهد؟
تنكص في يوم الحرب على عقبَيكْ؟
أم تسمح لمُناوئ هذا السلطان
سيفِ الدين القشقار
أو للباغي عز الدين الكرجي
أن يسلبك المجد؟
اضرِب ضربتك الآن إذا كنتَ خليقًا بالمجدْ.

(تدخل غازية متخفية ثم تلقي الخمار وهي تقف خلفه، حين يراها يصعق.)

غازية: هل تذكرني يا علم الدين؟
علم الدين (مذعورًا دَهِشًا): أهلًا بابنة عمِّي ... كيف أتيتِ؟
غازية:

تدهش كيف تركتُ السجن؟

(تضحك.)
ابنة عمِّك واسعة الحيلة.

علم الدين (مرتبكًا)**:** لم أعلم أنك في السجن.
غازية:

شغلَتك الحرب ... نسِيتْ؟
حتى مَن تدعوها ابنة عمكْ؟

علم الدين (جانبًا)**:**

أترى تعرف أني المسئولْ؟
(إليها) لم أعلم ... إني لم أعلمْ.

غازية:

ألستَ غاضبًا لأنني تركتُ محبسي
عصيتُ أمر الحاكم الكبير؟!

علم الدين:

وما الذي ألقاكِ في السجن إذن؟
ماذا فعلتِ؟ ماذا قلتِ؟

غازية:

لم يعُد ذاك يهم،
فأنا الآن هنا.

علم الدين: لم يقل لي أحدٌ شيئًا.
غازية:

أكرَموني في غيابة السجونْ،
حرموني من صحائفي القليلة،
كيف أحيا يا علم ... دون صحائف؟

علم الدين (في ذعرٍ لأنه يشك أنها تعرف أنه المسئول): من يا ترى المسئول عن هذا؟
غازية:

بل لا تلُم أحدًا لأن الوقت فاتْ
وأنا عزمتُ على الرحيلْ.

علم الدين (يضحك): وأين ترحلين غازية؟
غازية:

لا تسَلِ الهارب أين يُولِّي
فأنا أبحث عن معنًى للغدْ.

علم الدين:

الغد يشرق بالوعد الصادق لكْ!
لا أعرف ماذا أغضب منكِ الحاكمْ،
لكنكِ مرجعنا في العلم وفي الحكمة،
وغدًا تسمو بك حكمتكِ وتعلو
الغد يا ابنة عمِّي.

غازية:

الغد كالأمس وكالحاضر
حباتٌ في عِقدٍ منظومْ
حلقاتٌ متداخلةٌ تتكررْ،
والمحبس في السجن أخفُّ من المحبس في القصرْ،
فالشعراء تقول كلامًا لا يتغيرْ،
والأرض تئنُّ بظلم الحكَّام وأخبار الحرب الكذابة.

علم الدين:

مهلًا مهلًا،
لا تنسَي أنكِ أنتِ من الحكَّامْ.

غازية:

هل تعرف مَن غازية إذنْ؟
هل تشهد أنك تعلم هذا عِلم يقينْ؟

علم الدين: أوَلستِ ابنة عمِّي حقًّا؟
غازية: هل تُقسِم يا علم على هذا؟
علم الدين (مضطربًا): أُقسِم يا غازية بلا شك.
غازية: وبأنَّا أحفاد الباشقَردِي؟
علم الدين (منفجرًا):

ما شأنك بالأنساب اليوم؟
هل هذا أفضل وقتٍ لمناقشة سُلالات الحكَّام؟
أفلا تدرين بأن التتر على الأبوابْ؟
وبأن الجاسوس المدسوس علينا قائدهم صِمْغار؟

غازية:

تعلم أني أعلمْ
بل تعلم أن مظاهرة الحرب المكشوفة
والتتر وفخ الجاسوس وإلقائي في السجن
أعراض للمرض الكامن في جسد الدولة!
وأنا أرحل بجنودي وعتادي كي أنجو من هذا المرض القاتلْ!
أنسيتَ بأنَّا كنا قد عاهدْنا الله على إنقاذ الوادي؟
ولعلك تذكر أيْمانًا لا تقبل حنثًا
أن نتفانى كي تنجوَ مصر وينجو الناسْ!
لا تدفعْ بالنسيان فإنك لم تنسَ ولم تغفلْ،
لكن شغلَتكَ أمور السلطة عن فقر الفقراءِ
وجوعِ الجوعى ونداءات المحرومينْ.

علم الدين: أعلم يا غازية ولا أجهلْ.

غازية:

تعلم بفداحة ما يتهدد أهلَ النيل البسطاءْ،
قد حمَّلناهم ما يقصُر عنه ألف مُقطَّمْ،
في الشارع يمشي ألف مُهدَّم،
الزارع لا يجد بذورهْ ... والحاصد لا يجد المِنجلْ،
إن دام الحال شهورًا لن يجد الناس بمصرٍ ثَمن القوتْ،
أتُرى غابت عن فطنتك عواقب ما يفعل ذاك السلطان؟

علم الدين (في حرج):

إني نائبُه يا غازية ويحزنني ما آل إليه الحالْ،
وأنا ما زلتُ على عهدكِ بي.

غازية: بل أصبحتَ كبيرًا تنظر من فوقْ.
علم الدين:

لم أتنكَّرْ يا غازية لشيء،
لكن شئون الحرب ... كما تدرينْ.

غازية:

الحرب الحرب الحربْ؟ الحرب لصالح مَن؟
ولمن؟
للظالم والغاشم والأجناد وللأتباع المرتزقة؟
إن كان بهذا الوادي خطر يتهدده فهْو هنا،
الخطر هنا يا علم الدين ... لا في أنطاكية
أو في بَر الشام!
هذا السلطان الجاهل لا يملك إلا المكرْ،
بدأ الرحلة بخداع الناس وأنهاها بخداع النفسْ،
يحكون عن الأهوال وعن عودتهم بالنصرْ،
النصر على مَن يا علم الدين؟

هل حاربتم أحدًا منذ سنين؟
تلك الغزوات الملعونة في أرض الرومْ
هل هي ما يعنيه درء الخطر الأكبر؟
هل حررتم أرضًا أو دافعتم عن دين الله؟
كلا ... بل عدتم بالأسلاب رقيقًا وإماءً ومغانمْ
مثل لصوص البَر
وقراصنة البحر!

علم الدين: لكنا نُرهبهم ونُخوِّفهم.
غازية:

حُججٌ واهية خرقاءْ
(في رِقة) أنسيتَ حديث النفس الصادقة على الشرفة؟
أنسيتَ تناجينا منذ انحرف السلطانْ؟

علم الدين: لم أنسَ كلامكِ يا غازية ولم أنسَ كلامي لكنْ ...
غازية:

لكنْ ماذا؟ حبسي أنساكَ الحق؟
هل كنتُ ضميرًا ألقيتَ به في قاع الجُب؟
كلا يا علم الدين!
إنَّا نمتص دماء الناس وقُوتهُمُ باسم الحربْ،
نُلهيهم بالأخبار الزائفة عن النصرْ
حتى نأخذ ما في أيديهم،
بل ما يَحيون به ويعيشون عليه.

علم الدين:

أعلم أن السلطان يُغالي في أخبار النصرْ،
لكنَّ التتر هناك
عند تخوم الوطن الغالي.

غازية:

الوطن الغالي للأمراء ومَن يملكه منكم!
ماذا تعرف عن هذا الوطن الغالي يا علم الدين؟
هل مصرٌ وطنك؟ أتحارب كي تحميَ وطنكْ؟

علم الدين:

نحن سواء يا غازيةٌ في هذا،
يجمعنا الماضي والحاضرْ،
ماضي الغربة في أطراف الأرضِ،
وحاضر مجدٍ نلْناهُ بأيدينا!
ونُطِل على المستقبل بالحب الزاخرِ
والأمل المعقود بمبسمكِ الآسرْ!
فأنا صاحبك وخِدنُكْ،
وابنة عمي من لحمي ودمي!

غازية: لستُ ابنة عمك يا خِدن الأوهام!
علم الدين: كُفِّي عن هذا اللغو حبيبة قلبي!
غازية:

لستُ ابنة عمك يا علم الدين،
فأنا مصرية!
أمي ماتت يوم رأيتُ الدنيا
لم أرها!
وأبي مصريٌّ لا أعرفه،
لكني أذكر يوم استُشهِدْ،
لم تبرح ذهنيَ ذكرى اليوم الأسودْ،
يومَ تلقَّاه الجلَّاد بسيف السلطان الأمردْ،
حين تجاسَر واعترض على حُكم غلامٍ
لم يرعَ حدود الله،

أما عمك فرآني وحدي أبكي فَقْد الأبْ،
أتلفَّت حَيْرَى ذاهلة لا أدري أين طريقي
في دنيا تشغلها أشعار الحربْ!
كان أميرًا ذا خُلقٍ سامٍ
أحزنه موت بريءٍ لم يُذنبْ،
ورأى فيَّ رجاحة عقلٍ فرعاني
وتبنَّاني وسقاني العلم!
أخفى عن سائر أهل القصر السر
وحباني عطفًا وحنانًا في فَجْر العمرْ؛
إذ أطلعني وأراني ما دنياكمْ،
دنيا القلعة والحرس الساهر والأجنادْ،
دنيا القوة والأحقادْ،
وأراني أيضًا ما دُنيانا خارج أسوار الحُكمْ
بين سواعد أهل الصنعة
وشهامةِ أهل الصنعة،
فعشقتُ الحدَّادين ورُمتُ النجَّارين
وخالطتُ الخيَّاطين وطفتُ مع السقَّائين
(تضحك) حتى وأنا في سجن الكتب هنا!

علم الدين:

لكنكِ بنتُ الباشقَردي،
عمي أخبرني بل أكَّد لي ... (يتردد)
وأنا ... أقصد أني ...

غازية (في لهجةٍ مرحة):

لم تكُ تعرف أني أصلح لك؟
وأنا حررتُك من وعدك،
وسأمضي لسبيلي فلديَّ همومٌ أخرى.

علم الدين:

مُحالٌ يا ابنة العم الكريمة،
فأنت المرجع الموثوق فينا،
وأنت ملاذنا عند الخطوب!

غازية: لا أقبل دَور العرَّافة!
علم الدين (الواضح أنه غير مخلِص)**:**

بل أنت النجم الهادي في صحراء الزمن التائهْ؛
إذ ننهل من علمك من حكمتكِ
ونسترشد بالرأي الصائب من شفتَيك.

غازية:

بل إني امرأة من هذا الشعب!
ولهذا أتخلَّى عن ترف القصر،
يكفيني ما أعرف عن قانون الغاب
وخداعي بوعودٍ وعهود مكذوبة.

علم الدين:

أنا لم أخدعكِ بشيءٍ لا أعنيه،
قدَّمتُ فؤادي لكِ منذ صباي الباكر،
لم أعشق غيركِ ... ومحالٌ أن أَنشد أخرى.

غازية:

بل إني راحلة يا علم الدين،
أصدرتُ الأمر إلى أجنادي ومماليكي
(تضحك) يا سخرية الأقدار!
مصريٌّ يملك مملوكًا.

علم الدين:

غازية أنا مملوكٌ وبيدكِ زمامي،
إن أمرَت غازية بشيءٍ كانْ،
ما مطلب غازيةَ اليومْ؟
ما مهر حبيبةِ قلبي؟

غازية:

لا أطلب إلا ما وعدَت شفتاك به يومًا
وتلاقَينا عنده ... (صمتٌ متوتِّر)
أن نخلع هذا السلطان الجائرْ.

علم الدين: نخلعه حقًّا! ما أيسره من مهر!

(يضحك ضحكةً زائفة.)

غازية: وننحِّي الحاشية الملعونة ونصارح أبناء الشعبْ.
علم الدين: وننحِّيها ونصارح أبناء الشعبْ!
غازية: هذا وعدٌ صادق؟
علم الدين: هذا وعد حبيبٍ يبغي أن يتزوج.
غازية (تضحك): نتزوَّج يا ابن العم!

(يتعانقان.)

(إظلام)

المشهد الرابع

(نفس المنظر، يدخل السلطان والحاشية ومن ورائهم محمود النجار في صحبة حارسَين.)

السلطان (إلى الحراس):

دعونا وحدنا! هيا!
(ينصرف الحراس.)
تعالَ ولا تخَف صِمْغارْ!

محمود: صِمْغارْ؟
السلطان (يضحك): لم تسمع اسمك من قبل؟
محمود: اسمي محمود يا مولاي!
السلطان: أمَّا صِمْغار التتري فلا تعرفه يا ... محمود؟
محمود:

إني نجار من حي القلعة،
مصري من أهل الصنعة،
وطلبتُ لقاء السلطان لكي ...

السلطان (يضحك): تطلب بعض الأخشاب؟
محمود:

مولاي حصيف لا تخفى الأشياء عليه،
وهو كريم لن يبخل بالأخشاب على نجارٍ مسكين!

السلطان:

إني أكره هذي اللعبة يا صِمْغارْ!
لكن ما دمتَ تصر فلا بأس،
لِتكُن محمودًا ما دُمتَ تحب الأسماء العربية.

محمود:

مولاي لدَيكم في حوش القصر الأكبر
أخشاب السرو الشامية
ألواح لا حصر لها ... تنفع لجهاز عليَّة.

السلطان (يضحك ضحكًا شديدًا)**:**

تنفع ... لجهاز عليَّة؟
ما أعجب ما تتقن لهجتنا المصرية.

محمود: إن سمح الحاكم لي منه ... بقليل.
السلطان: فستصنع فُرشًا تركية؟
محمود:

القوم لدَينا ينتظرون رُجوعي،
ويريدون نتيجة مسعاي،
ينتظرون الأخبارْ.

السلطان:

حقًّا؟ القوم لدَيكم؟ (فرحًا)
ينتظرون الأخبار؟
(يضحك) ستوافيهم بالأخبار!
هيا ... أقبل ... سأكاشفك بفكري الآن!
أنا أعرف كم يشتاق «القوم لدَيكم» للسِّلم!
كم يكره كل «القوم لدَيكم» أهوال الحرب.

محمود:

أنا لا أجد الأخشاب،
وعُبَيد لا يجد معدات التطريز،
أما فرج الحداد ...

السلطان (مقاطعًا):

ألديكم خياطون وحدادون؟
(يضحك) طبعًا طبعًا
إذ كيف تُعدِّون دروعكمُ وسيوفكمُ؟
لكن أبشِر ... قد آن أوانُ السِّلم.

محمود: ألن تحاربوا التتار بعد اليوم؟
السلطان: اسمع يا صِمْغار ...
محمود: اسمي محمود.
السلطان:

ليكن يا أسطى محمود،
أنا لا أبغي إلا السِّلم،
لا أقبل أن يُسفَك دم أبناء بلادي عبثًا،
لا أرضى لهم الموت بلا معنى،
تلك الأهوال المتوالية البلهاءْ
ما معناها؟
لا أخفي عنك فداحة حزني لفداحة ما حل بنا.

محمود:

تقصد في آخر غزوة؟
أو آخر موقعة في الشام؟

السلطان:

قد لا تعلم أنا أخفَينا الكارثة عن الناسْ،
أوهَمْناهم أنَّا أحرَزْنا النصرْ.

محمود:

وبعثتم شاعركم يتغنَّى بالأمجاد الموهومة،
أعلم ذلك ... بل قلتُ لهم ذلك.

السلطان (منزعجًا)**:** قلتَ لمن؟
محمود: للقوم لدَينا ... فرج وعبيد.
السلطان (يضحك)**:** آه ... فرج وعبيد ... لا بأس.
محمود: إخفاء النكسة بعد النكسة.
السلطان:

لا قِبَل لنا بتتارٍ ديدنهم طعنٌ ودمار،
نبغوا في فن الحرب وبلغوا الغاية في الوحشية
(يهمس) ولديهم أسلحةٌ سرِّية،
تعرف ما أعني،
أشياء تتفجر في أسوار المدن الشمَّاء
فتُدمِّرها ... تجعل عاليَها سافلها.

محمود: أتراك تعني المنجنيق إذنْ؟
السلطان:

بل إن للتتار من سلاح البَر ما لم نعهدِ،
وهم عتاة بارعون سفاكون للدماءْ.

محمود:

لكنكمُ أهل ضراوة،
وتمرستم منذ الصغر بكل فنون الحرب،

وحذِقْتم ألوان الضرب،
أحْكَمْتم فن الكر وقَذْف الرمح،
لو صدق العزم لدَيكم وتوحدْتُم صفًّا لسحَقتُموهم،
وإذن لا قِبَل لجيش التتر بكم.

السلطان (يتصور أن الجاسوس يراوغ)**:** بل لا قِبَل لأهل البَر بهم.
محمود:

أهل البَر؟ ما شأن التتر بأهل البَر؟
أوَلستم أنتم من يحمي البَر؟

السلطان:

إنك لم تفهم قصدي،
الحرب جهازٌ بشَري يمتص جهودًا بشرية.

محمود: لا أدرك مرماك.
السلطان:

هل تعرف كم يتكلف رجلٌ واحدْ
كي يُصبح جنديًّا في جيش السلطان؟
آلاف الدينارات!
هل تعرف من يدفعها؟
أهل النيل البسطاء!
نفقات الحرب الباهظة الخرقاء
تثقل كاهل أبناء الوادي،
وأنا لا أقبل أن أُرهقهم
يكفي ما نِلْناه بشَنِّ الحملات الرعناء،
إذ عانى كل الناس وعانَينا
بينا ما زال التتر على الأبواب
يبغون السِّلم ... وبيدهم غصن الزيتون.

محمود:

هل تعني أن السعد على الأبواب؟
وبأن نوايا التتر لدَيكم معروفة؟

السلطان (يحاول انتزاع سر من الجاسوس)**:**

أوَليسوا حقًّا يبغون السلم؟
أعرف أنك نجار من حي القلعة يا صِمْغار،
أقصد يا محمود! ... لكنك لا بد عليم بالأسرار.

محمود: أنا لا أعرف إلا ما تتناقله الأخبار.
السلطان: لكن التتر يريدون السلم ... كما أعلم.
محمود: أنا لا أتصور أن التتر سترضى بالشام.
السلطان: لا تتصور؟
محمود:

أو تقبل أن تكتفيَ بعكا أو حيفا،
وأمامهمُ يمتد النيل.

السلطان: لكنهمُ قد عرضوا السلم!
محمود:

السلم بأي شروط يا مولاي؟
أفلا تخشى أن تمتد مطامعهم للنيل؟
في ظني ... (يتردد) هذا ظنٌّ ولقد يخطئ ظني.

(يتوقف عن الحديث.)

السلطان (يحثه على الكلام)**:**

ظنك ماذا؟ ماذا في ظنك؟
قل!

محمود:

أنك إن لم تخرج يا مولاي إليهم
جاءوك هنا.

السلطان:

جاءوني؟ (يتمالك نفسه وتخطر له فكرة)
لم لا؟ قطعًا سوف يجيئون،
لكن كالأصحاب وكالأحباب.

محمود: تقصد إن أبرمتَ سلامًا معهم؟
السلطان:

بل إن صاهرتُ مليكهم الأكبر،
أو حين أصاهره إن شاء الله.

محمود:

أتُصاهر ملِك التتر الأكبر حقًّا يا مولاي؟
عجبًا لم أسمع عن هذا من قبل.

السلطان: ما رأيك فيه إذن؟
محمود:

رأيي لا قيمة له،
فأنا نجار لا تعنيني إلا الأخشاب.

السلطان: صَدَّقتُك قلنا! ... لكن كيف ترى الفكرة؟
محمود: أخشى ألا تقدر يا مولاي.
السلطان (غاضبًا)**:** ألَّا أقدر؟
محمود:

أعني ... أفلا تخشى الأعوان؟
أفلا تخشى ألسنة الناس؟

السلطان:

ما شأن الناس بما يفعله السلطان؟
للناس هموم تشغلهم ... مثل الأخشاب!
ولسوف تظل هموم الناس،
ماذا يعنيهم لو نلتُ عروسًا أخرى؟
(يهمس) هذا لو علموا أني نلت عروسًا أخرى!
أما الأعوان فما يعنيني أيُّ الأعوان؟
الكل يدبر في صمت لهلاك الآخر،
والكل يشي لي بالكل،
فالمغنم في مصر كبير،
والمال السائب يُغري بالسرقة.

محمود:

أفلن يهتموا حقًّا؟
لن يغضب رجل أو رجلان؟
أفلا تخشى أن تُعزل أو تُقتل؟

السلطان:

العزل لا أخشاه؛
إذ ليس في الديار ماكر بمثل فطنتي،
ولست في هذا فريدًا؛
فكل حاكمٍ فطِن ... وكل حاكمٍ مكير.

محمود: أوَلستَ تخشى القتل؟
السلطان:

يا صاحبي!
لا يُعزَل الحُكَّام في بلادنا بل يُقتَلون،
وكل حاكم يرى في سيفه كفَنَه.

محمود: فإن فشلتَ في اقتناء هذه العروس؟
السلطان:

لقد خطبتُها يا صاحبي سرًّا،
ودفعتُ مهرها.

محمود: ثمن السلام؟
السلطان: فليكن.
محمود: لا أدري ما سيقول القوم إذا عرفوا.
السلطان:

ستُفتح الأبواب بيننا وبينهم
ستُعزَف الألحان كل يوم
وتلتقي موائد الأعراس عندنا
(مترددًا ويرمقه بطرف عينه.)
وعندكم.

محمود: تعني سنأخذ الأخشاب؟
السلطان (يكون قد نسي أنه نجار)**:** أية أخشاب؟
محمود:

ما جئتُ أطالب به،
فأنا نجار ...

السلطان (مقاطعًا وقد تذكر)**:**

من حي القلعة!
رجل من أهل الصنعة!
(يضحك ضحكًا شديدًا.)
فلتبلغ هذا الخبر إلى قومك
والدها يعرف،
لكن الباقين يتوقون إلى معرفة نوايانا.

محمود: لم أك أتصور!
السلطان (في حزم)**:**

والآن تصورت؟
اسمع يا صِمْغار ... (يضحك) أو يا محمود!
هذا عهد سلام أقطعه ومحال أن أُخلف،
أبلِغهم هذا ... والآن سأمضي لشئون الدولة.

(يخرج السلطان.)

محمود (وحده على المسرح)**:**

ما معنى هذا الإصرار على تسميتي صِمْغار؟
صِمْغار اسمٌ تتري،
بل هو من خلفاء الملك الراحل هولاكو،
كيف يظن بأني صِمْغارُ إذن؟
أفلا ينطق حالي؟
أفلا يشهد أني مصري؟
كيف اختلط الأمر على هذا الداهية الأكبر؟
التفسير الأوحد أنهمُ كانوا ينتظرون قدومه
أو أبلَغهم مَن أبلَغهم بتخفِّيه
في زي ابن البلد المصري!
إن كان كذلك فأنا في خطرٍ داهم؛
إذ قد يصل أخونا صِمْغار
فتدور الدائرة عليَّ ويُفصَل رأسي عن جسدي
الحل الأمثل أن أخرج من هذا القصر
فأعودَ إلى فرجٍ وعبيد.

(يهمُّ بالخروج فيفاجأ بالأميرة.)

الأميرة: الفارس المغوار!

(محمود يتلفت حوله فلا يرى أحدًا.)

الأميرة: وعلى يده اليُمنى شامة!

(محمود في حرجٍ شديد يُخفي يده اليمنى.)

الأميرة:

إن أخفاها في كمه
ظهرَت في يده اليسرى.

محمود: عمَّن تتحدث مولاتي؟
الأميرة:

من موج البحر خرجْت،
وعلى الآفاق مشيْت،
حتى جئت إليَّ على موعدْ.

محمود: أنا يا مولاتي؟
الأميرة:

الفارس ذو الصوت الصادح في غبش الصبح،
حمَلَت أنغامَ الناي الأنسام،
وأتتني بك أطرافُ غَمام.

محمود:

أنا يا مولاتي نجار من حي القلعة،
رجل من أهل الصنعة.

الأميرة: تتخفى حتى لا يعرفك الناس.
محمود:

أبدًا يا مولاتي ... أنا لا أتخفى،
بل أنا محمود النجار.

الأميرة:

أوَلم تكشف لك حبَّات الرمل عن القدَر المكتوب
ورسوك هذا اليوم على شط المحبوب؟

محمود: مولاتي أنا لا أسمع إلا صوت العقل.
الأميرة:

والعقل يقول بأنك جئتَ إليَّ،
وستمضي بي من هذا القصر إلى جنة أحلامك،
إني أنتظرك من سنواتٍ ضَلَّت في بحر زمانك،
واليوم رسوتُ وإياك على شطِّ رمالك،
خُذني يا محمود وطِرْ بي.

محمود:

مولاتي ... أنا لست الفارس أقسم لك،
بل مهما اشتطَّت أحلامي
لا أطمع في مثل جمالك.

الأميرة:

بل إني لك،
بجمالي ... وبمالي ... ومماليكي.

محمود: مولاتي أنا لا أطمع إلا في بعض الأخشاب.
الأميرة: أخشاب العالم مِلك يدَيك.
محمود: لا أبغي إلا أخشاب العفش.
الأميرة:

عفش العرس؟ عرسي وزفافي لك؟
لا تحمِل همًّا ... فلقد أعددتُ العُدة،
وأثاث المنزل في قَصري عند البِركة.

محمود:

يا مولاتي! أقصِد عُرس عليَّة ... وزكيَّة،
أقصد أعراس الشعب.

الأميرة:

في يوم زواجي بك ... سنُزوج كل الفتيات
وستُفتَح أبواب المخزن كي يأخذ كل عريسٍ ما يبغي.

محمود: من أخشاب السلطان؟
الأميرة:

هل هذا مهرُك يا محمود؟
إن كان حقيقًا بك
أفصِح عن نفسك.

محمود: يا مولاتي أنا لست سوى نجار ...
الأميرة (ساخرة)**:**

من حي القلعة؟
رجل من أهل الصنعة؟

محمود: أقسم ...
الأميرة (مقاطعة)**:**

لا تقسم،
حتى لو كنت النجار فأنت نصيبي
قدَري ... دُنياي ومَحياي.

محمود:

لكن زواجي منكِ مُحال،
الهوة شاسعة بين النجار وبنتِ الأمراء.

الأميرة:

بل لا أعرف معنى الهوَّة،
الهوة يا محمود هنا في هذا القصر.

محمود: مولاتي لا يرضيها قصر السلطان؟
الأميرة:

أحلم بمكانٍ كان أبي يتحدث عنه
بستان لا تُسمَع فيه طبول الحرب،
وبلَيلٍ ساجٍ يحلم فيه البدر،
ونهارٍ يزخر بدبيب الناس.

محمود: حلم من أحلام اليقظة.
الأميرة:

بل هو ما سوف نحققه يا محمود معًا
(تقبل عليه) لا تعجب يا محمود فعندي ما تبغي،
أنا ملك يمينك ... خذني معك إلى الجنة.

محمود: يا ليت الجنة مِلك يميني فأقدمها لك.
الأميرة: بل أي مكانٍ يحوينا صِنو الجنة.

(تمسكه بحنان فيمسك يدها ويقبلها.)

(يدخل علم الدين وعز الدين وحُسْنة.)

حُسْنة (مصعوقة)**:** مولاتي.
علم الدين: صِمْغار تزوج خاتون!
محمود (يفيق من استغراقه)**:** اسمُكِ خاتون؟
الأميرة: بل هو زوجي منذ زمان يا علم الدين!
حُسْنة: مولاتي هذا جاسوس تتري!

محمود (ما زال في دهشته): اسمك خاتون؟
الأميرة (تفيق لأول مرة): اسمك صِمْغار؟
محمود:

اسمي محمودٌ يا ناس!
ومُحال أن أصبح جاسوسًا،
إني جئتُ لبعض الأخشاب ولم أتزوج أحدًا.

الأميرة: تتنكر لزواجي منك؟
محمود:

أتنكر كيف؟ يا للوقعة!
هل حصل زواج حتى أنكره؟

علم الدين: إنَّا شاهَدْنا.
عز الدين: ورأَيْنا.
حُسْنة: وسمِعْنا.
محمود: لكني لم أتزوج بعد.
الأميرة:

لا تأبه يا محمود لهم،
لستُ ابنة أحد منهم
وسأمضي معك إلى آخر أطراف الدنيا،
هيا.

(يدخل سيف الدين فيجفل الجميع.)

سيف الدين (داخلًا):

ما هذا الهذر عن الجاسوس التتري؟
(لا أحد يرد.)
هل هو هذا المصري؟

محمود:

اسمي محمود يا مولاي،
نجار من حي القلعة،
رجل من أهل الصنعة،
ظنوني جاسوسًا ويريدون زواجي من تلك المرأة.

سيف الدين:

تلك المرأة يا جاسوس سليلة عز ومكارم،
وأنا خاطبها من زمن ودفعتُ المهر إلى المرحوم
والدها السلطان الأكرم.

الأميرة (تحاول الاعتراض)**:** لا ... بل لا ... إني ...
سيف الدين (صائحًا)**:**

صمتًا
(إلى حُسْنة) هيا يا جارية أعدي ما يلزم
فسنمضي قبل صلاة الظهر.

حُسْنة: سمعًا يا مولاي وطاعة.
الأميرة: لكني ...
سيف الدين:

صمتًا
هيا يا جاسوس بنا،
قد آن أوان حسابك.

(إظلام)

المشهد الخامس

(نفس المنظر، تدخل حُسْنة مع غازية.)

(عندما يضاء المسرح تكونان في منتصف الحديث.)

حُسْنة:

بل إني واثقة يا مولاتي
حُبست خاتون ببرج القصر.

غازية: من أمر بذلك؟
حُسْنة: سيف الدين.
غازية: علنًا؟
حُسْنة: ماذا تعنين؟
غازية:

أعني هل قال: «بأمر السلطان»
أو «باسم الحاكم»؟

حُسْنة:

لا أدري يا مولاتي،
لكن الحراس مضوا بالمسكينة دون كلام،

أخذوها بدلًا من جاسوس التتر إلى السجن
(مترددة) ولعلك ... أقصد ...

غازية (تضحك):

أعرف تلك الغرفة؟
بل أعرفها خيرًا من كل النزلاء،
مع أني لم أقضِ بها إلا بضعة أشهر!
واهًا لك يا خاتون المسكينة!
هربَت منذ سنين لخيالاتٍ ملتاثة
بعد وفاة أبيها السلطان!
لم تتصور أن يمضي في منتصف العمر
فيتركها نهبًا للجشع وأطماع الأمراء.

حُسْنة: أفلا يهواها سيف الدين؟
غازية: يهواها فيزج بها في السجن؟
حُسْنة:

بل قال سيأخذها معه ... أعني يتزوجها،
وتحدث عن مهرٍ أعطاه أباها قبل وفاته.

غازية:

يتزوجها؟ سيف الدين القشقار؟
(تضحك في مرارة) قد كنت أظنكِ ذات دراية.

حُسْنة: لكن مولاتي لم ترضَ ولن ترضى!
غازية:

ماذا تملك خاتون؟
مولاتك لا حول لها،
زارتني يومًا في المحبس.

حُسْنة: مولاتي خاتون؟
غازية:

كانت شاردة اللب،
تحلم بالفارس ذي اللون الأسمر،
رجل من أهل البر.

حُسْنة:

أعرف يا مولاتي،
لكن ما شأنك أنت؟

غازية:

ما شأني حقًّا!
يا حُسْنة! من ألقاني في السجن البارد ألقاها!
لم يكن الحاكمَ في أي الحالَين!
بل أمراء الحاكم ... مَن سلبوه السلطة
علم الدين وسيف الدين وغيرهما.

حُسْنة: أعلم أشياءً أخرى عن علم الدين وعنك.
غازية (تضحك): كان يرى فيَّ حياته!
حُسْنة: أقصد أنك بنت الباشقَردي!
غازية:

ابنة عمه؟
حقًّا؟ قد كان يرى فيَّ الأمل المعقود!
وتصوَّر أني ابنة عمه!
ولهذا ألقاني في السجن ... وأنكر!

حُسْنة: هل هذا لغز يا مولاتي؟

غازية:

إني يا حُسْنة مثلك! من أبناء الناس! وكلانا يعرف بعض الأشياء عن الآخر!
وقريبًا أفضي بالسر إليك!
وأحابيل دهاليز القصر الظلماء ستفرخ هذا اليوم،
أعرف كيف ستفرخ ... بل وأحس بنوع الأفراخ!

حُسْنة: مولاتي شاعرة لا شك!
غازية:

بل لا أذكر إلا ما أعلم علم يقين
(يدخل شهبندر من وراء ظهر غازية بحيث لا تراه ولكن حُسْنة تراه.)
وأكاد أرى شهبندر يسعى حتى تمضي معه ...

حُسْنة (مقاطعة في دهشة)**:** شهبندر!

(شهبندر يتسمر في مكانه.)

غازية (تستمر دون التفات)**:**

شغلَته أمور البحر عن الدنيا،
لكن لم تشغله عنك.

حُسْنة (تشير إليه أن اختبئ)**:** مولاتي تعرف كل الأسرار.
غازية:

أوَهذا سرٌّ يا حُسْنة؟
ها هو شهبندر.

(تلتفت إليه وتواجهه.)

شهبندر (يبلع ريقه)**:** مولاتي!
غازية: أحسنتَ بأن دبرت الهرب اليوم.
شهبندر: مولاتي ... ماذا تحكين؟

غازية:

لا تخشَ ملامًا يا شهبندر
ليس لمثلكما في هذا القصر حياة.

شهبندر:

أنا حقًّا أعددت العدة،
لكن الحال عصيب،
والجاسوس التتري يدبر لهلاك البر.

حُسْنة: يقصد صِمْغار.
غازية:

أعرف من يعني ولسوف أقابله الآن،
أرجو أن ترحل مع حُسْنة ... حتى سوقِ القلعة
اسأل عن أهل الصنعة،
وأقم لا تبرح حتى آتي،
انتظرا ساعاتٍ معدودة
مع بعض معارفيَ الخلصاء.

حُسْنة:

من تقصد مولاتي؟
أنا أعرف عددًا منهم
لكني لا أدري إن كان هنالك من يذكرني.

غازية:

في سوق القلعة رجل أرسله السلطان
حتى يتحسس أخبار الناس،
لم يعد البارحة ولا اليوم،
لا أدري ماذا حل به.

شهبندر (في دهشة): أهو صديق يا مولاتي؟
غازية:

بل أحد عيوني يا شهبندر،
إن جرتِ الأحداث كما أبغي
فلسوف أوافي السوق قُبَيل العصر،
ورجائي أن تنتظرا مهما كان الأمر.

حُسْنة: لكن ... مولاتي ... لا أفهم.
غازية: هيا يا حُسْنة فالموقف لا يحتمل نقاشًا ... هيا.
شهبندر:

مولاتي ... هل نخبر هذا الجاسوس بشيء؟
أم نسمع منه الأخبار؟

غازية:

ما أكثر ما تسأل يا شهبندر!
أفلا تصبر عدة ساعات؟
هيا ... قلت لكَ!

(يخرج شهبندر من حيث أتى مع حُسْنة.)

غازية (وحدها على المسرح):

اليوم سيشهد ما لم يشهده التاريخ،
أعرف ما يُحدق بالخطة من أخطار،
فأنا ألَّبتُ المملوكين على السلطان،
وألبت السلطان على المملوكين،
ونسجت بمحبسي المظلم أطراف الخطة
دون حساب لوصول الجاسوس،
أو لوصول القائد صِمْغار،
لن ينجح ثأري من علم الدين

إلا إن وقف التتريُّ معي،
آهٍ يا غازية لقد آن أوان الثأر
أتحالف فيه مع الشيطان؛
كي أضع نهاية هذا الحُكم الظالم.

(يدخل محمود مع حارس.)

غازية (ضاحكة بدلال): أهلًا بالملك الظافر.
محمود: من مولاتي؟
غازية (إلى الحارس):

اخرج أنت ... (يخرج الحارس)
أقبل يا ملك البرَّين.

محمود:

مولاتي ... أنتم تعتقدون بأني صِمْغار،
لكني ... وأؤكد لك ... لست بصِمْغار.

غازية: تقصد أنك نجار؟
محمود:

نجار يا مولاتي من حي القلعة،
رجل من أهل الصنعة.

غازية (ساخرة): ولذلك يحتفل الكل بمقدمك الميمون؟
محمود:

كنتم تنتظرون وصول التتري
في زي ابن البلد المصري
فوصلت أنا أطلب أخشابًا.

غازية: فتصورناك التتري؟

محمود:

اسمي محمود يا مولاتي،
والكل يريد محادثتي
ويسر إلي بأسرار الدولة.

غازية:

لكنني لن أطلعك على أسرار
سأقص عليك وحسْب ... قصة حبسي.

محمود: قصة حبسك يا مولاتي؟
غازية: أسئمت القصر ولَّما تمكث فيه سويعاتٍ سبعًا؟
محمود:

بل إني رهن المحبس أشتاق العودة،
من لي يا مولاتي بالحرية؟
أشتاق لفرج وعبيد،
أشتاق لمسعود ولأم علية.

غازية (تصفق):

أحسنتَ التمثيل اليوم،
لا بأس بلهجتك المصرية.

محمود (فجأة تتغير لهجته):

ولنفرض أني جاسوس يا مولاتي،
ماذا تبغي غازية من جاسوس تتري؟
أوَليس عدو الدولة والإسلام؟

غازية:

بل لستَ عدوًّا لأحد!

إن صرتَ إليَّ وصرتُ إليك
أنقَذْنا هذا الوطن الغالي من ظلم الحكَّام.

محمود:

تتحالف مولاتي مع تتري كي تنقذ أهل البر؟
ماذا في طوق التتري ... بل ماذا في طوق أميرة؟

غازية:

أنا لا أتحالف مع تتري يا ... صِمْغار،
لكني أبغي أن أطلعك على الوجه الآخر لحياة الناس.

محمود:

أتُراك على علم بحياة الناس إذن؟
أترى تدرين بما يحدث خارج أسوار القصر؟
إنك يا مولاتي مترفة تجدين المأكل والملبس
وعلى الجنبين الخدم يلبون الأمر،
إن يقسُ الزمن عليك ينل من سطوتك الشماء،
أو يعطف يسمُ بعرشك للعلياء،
ماذا يشغلكم إلا أسلاب الغزوات
وسبي الروميات وأحلام الأمراء المهترئة؟
بِعتم للشعب أكاذيب النصر البلهاء
وتركتم من فيه يئن بلا أمس أو غدْ
محرومًا يتساند فيه الفقراء على الفقراء.

غازية (دهشة من حماسه):

مهلًا مهلًا،
لكأني بك مصري حقًّا!

محمود:

لأكُن من يرضيكم،
فأنا أدري الآن بأن الأمر خطير حقًّا؛
أمراء لا يعنيهم إلا قتل الأمراء،
فاتنة تحلم بالمنقذ،
وأميرة قصر حُبست وتود الثأر،
هل هذا ما يعني الحكم؟
هل هذا معنى السهر على مصلحة أهالي البر؟

غازية: نبراتك يصعب أن تصدر عن تتري.
محمود:

الواقع أن التتر بأعينكم مثل أهالي البر
أغراب عنكم،
تنقضُّون عليهم غفلة ... أو تنسونهمُ غفلة
في حي القلعة يا مولاتي حيث أقيم،
بشر يحيَون على هامش دنيا الله،
بل لا يجدون من الدنيا ظل سحابة صيف.

غازية:

إن تك حقًّا محمود النجار
فلماذا جئت إلى القصر؟
بل كيف دخلت ولم يمنعك أحد؟

محمود: الواقع أني لا أكترث لتصديق أو تكذيب.
غازية: أتُراك خدعتَ الناس جميعًا؟
محمود:

أنا لم أخدع أحدًا يا مولاتي،
بل أنتم من خدع الدنيا والناس،

إنا ندفع ثمن الحرب رجالًا ودمًا،
إن تكن الإمرة للأمراء
فجنود الجيش من الشعب الكادح.

غازية: هل يعقل أن يعرف نجار هذا كله؟
محمود:

مولاتي،
الناس على علم بالأحوال،
والشاعر لا يخدع إلا السذج.

غازية: إن كنت إذن محمودًا ...
محمود: بل أنا محمودٌ يا مولاتي.
غازية: ولماذا جئت؟
محمود: أطلب بعض الأخشاب.
غازية: لكنك في خطر محدق.
محمود: إن عرف الناس حقيقة أمري؟
غازية:

إن عرفوها قتلوك،
بل لن ينجيك سوى دور الجاسوس التتري.

محمود: أتظاهر أني جاسوس؟
غازية:

اسمع ... (تتردد) محمود
أنا لست سليلة مملوك أو سلطان،
لكني مثلك مصرية،
ولقد عُذِّبت وآن أوان الثأر.

محمود:

الثأر من فردٍ ضياع،

أعداء دين الله عند تخومنا يتحفزون،
ضربوا خيامهمُ وطال مقامهم،
وهمُ بنا يتربصون.

غازية: لا شك يا محمود لكن ... لستَ تدري ما الخطر.
محمود:

هذا هو الخطر الذي يحيا بمشرقنا
من أربعين سنة،
في كل يوم يعقدون الصلح ثم يمزقونه!
في كل يوم يكسبون الأرض منا
ينشرون بناتهم وبنيَّهم في كل رَبع،
بل إنهم قد خالطوا أهل الديار وصاهروهم
ريثما يأتي أوان قطافهم مثل الثمار الدانية،
لا يا أميرة ليس ثأركِ ذا خطر.

غازية: أنشن الحرب عليهم يا محمود ونحن شِعاب وشَتات؟
محمود:

لا تسليني عما يفعل أهل الدولة،
فأنا ذو هم في حرفتي المكروبة،
ومَرامي أن أخرج من هذا القصر سليمًا ومعافى.

غازية:

تتنكر تنكص تنكث؟
تتخلى عن بلدك في لحظة ضعف؟

محمود:

عجبًا لك يا مولاتي!
هل أولاني أحد شيئًا حتى أتنكر له؟

هل خيرني أحد في شيء حتى أنكص عنه؟
هل أقسمت على شيء حتى أنكث فيه؟
إني لا أتخلى عن بلدي ... بل أنفر من حُكم السيف،
الحاكم يا مولاتي عقل وبصيرة ... لا سيف مصلت.

غازية:

الحُكم رهين بالسيف القاطع،
يبرق في ليل الوحشة فيحيل البهمة لَأْلاءً كمسيل الشمس.

محمود: ولذا يحكمنا الجند.
غازية: احكم أنت.
محمود:

بل أنا نجار يا مولاتي ... وسعيد بحياتي،
عندي آمال لا أملك أن أجعلها تورق،
لكنَّ لدنيا في حي القلعة تاريخًا نحيا به،
وعلى شط النيل زهور وورود لا يعرفها الأمراء،
فلأعد الآن إلى أهلي ولتتماسك أيدينا حتى نجتاز المحنة،
مولاتي ... أستودعك الله!

غازية: تهجرنا يا محمود كأنا أغراب عنك؟
محمود: بل أنتم أغراب يا مولاتي.
غازية: أنا مصرية.
محمود (ساخرًا)**:** حقًّا؟
غازية: الحقَّ أقول.
محمود: هذا شأنك ... أستودعكِ الله.
غازية: بل شأنك أيضًا.
محمود (مبتعدًا)**:** مولاتي.

غازية: محمود.

(وهو على وشك الخروج ... يصيح منادٍ يا أهل القصر ... قتل السلطان الأعظم! قَتل الجاسوس التتري السلطان الأعظم!)

محمود: ما هذا؟
غازية: اهرب يا محمود اهرب.

(يدخل الجنود بسرعةٍ ويقبضون عليه.)

محمود: ماذا يحدث يا ناس؟
غازية (للجنود)**:** ماذا حدث؟

(يدخل عز الدين.)

عز الدين:

قُتل السلطان بغرفته العلوية،
ولقد أثبَتنا التهمة وعرفنا الفاعل.

(يدخل سيف الدين.)

سيف الدين:

هذ الجاسوس الخائن قاتل،
وسنقتله ونمثِّل به.

(يدخل علم الدين.)

علم الدين:

هل فر الجاسوس؟ لا ... ها هو ذا!
فليُقتل فورًا يا أمراء!
لا وقت لدَينا ... نحن بحالة حرب،
فليُقتل فورًا يا صحب.

غازية:

هذا يا أمراء بريء لم يذنب،
بل ليس بجاسوس أو تتري.

سيف الدين: صمتًا يا غازية فقد قُضي الأمر.
محمود:

بل أنا صِمْغار خليفة هولاكو،
ولديَّ عيون في كل مكان،
بل في جيش المتفاخر سيف الدين،
وهي عيون كشفت لي كل بلية،
ولقد أرسلتُ لقُوادي ولقُواتي
وحمامي في الأجواء على متن الريح الغربية،
إني أنذركم ... إن مُسَّت في جسدي شعرة
انقضَّ عليكم جيش التتر فأفناكم.

غازية: ماذا تحكي يا محمود؟
علم الدين: إنا في حالة حرب ... أقصد أنت أسير في يدنا.
عز الدين: من حق أسير الحرب دفاعٌ عادل.
سيف الدين: ومحاكمة عادلة في كل الأحوال.
علم الدين: نعقدها الآن.
عز الدين: بل الليلة.
سيف الدين:

بل فيما بعد!
فلدَينا الآن أمور تشغلنا؛
إذ إني بعد مبايعتي
لا بد سأنظر فيما آل إليه الحال.

علم الدين (ذهول): بعد مبايعتك؟

عز الدين (ذهول): عند مبايعتك؟
سيف الدين:

يا أيها الحراس نفذوا أوامري،
وليُحبس الجاسوس في الديوان حتى نعقد المحاكمة!

(إظلام)
(نهاية الجزء الأول)

المشهد السادس

(نفس المنظر في المشهد الأول ولكن الإضاءة نهارية، وعندما يرتفع الستار نرى فرجًا وعبيدًا جالسَين مع رجال آخرين يتحادثون، والواضح أنهم مشغولون بالجاسوس في الدكان.)

فرج (مشيرًا إلى الدكان)**:** هل تذكر إن كنا قد كممنا فمه ... وربطناه؟
عبيد:

أذكر في آخر مرة
كان هنا مسعود ... أخرجناه لكي يقضي حاجة.

فرج (يضحك)**:** تخشى أن يفسد دكانك.
عبيد: أبدًا! إذ إنَّا أحكمنا ربط يديه ... ورجليه معًا.
فرج: لكنك لم تأتِ خلال الليل لتتأكد؟
عبيد: كان على مسعود أن يحمل عني بعض العبء.
فرج: تعني أنك نمت قرير العين وذاك الملعون بدكانك؟
عبيد: كان هنا مسعود طول الليل.
فرج:

زوَّغ من أم علية؟
سهر الليل هنا؟
يا للنكد الأزلي!
لا شك بأن المسكين ينام الآن بمنزله أو في المشغل!
وستأتي الآن لتلقي باللائمة علينا وتصيح وتصرخ.

عبيد:

لا تقلق من ناحية أم علية،
فأنا أعرف كيف أحاورها (يضحك) وألاغيها!

رجل ١: لكن لم لا يتزوج مسعود تلك البنت؟
رجل ٢: لمَ يهرب كالمسعور كأن بها عيبًا؟
فرج: بل فيها سر!
رجل ١: المرأة تملك مالًا.
رجل ٢: ولديها مشغل.
رجل ١: منزلها لا بأس به.
فرج: لا تسَلُوا عن أشياء ...
عبيد: إن تبدُ لكم ساءتكم.
رجل ١: تقصد أن علية ليست حلوة؟
رجل ٢: لكن البنت غنية.
رجل ١:

لم لا تتكلم يا فرج الله؟
قل أنت عبيدٌ ما سر الأزمة؟

(فرج يتنحى بعبيد جانبًا ويتهامسان.)

فرج (يغمز لعبيد)**:** لا تسَلُوا عن أشياء ...

(يضحك.)

(تدخل أم علية في هلع.)

أم علية:

هل عاد المتعوس من القصر؟
قد علتِ الشمس وصِرنا في الظهر.

عبيد: أهلًا يا أم علية.

فرج: ماذا تبغين الآن؟
أم علية: المنحوس المنكود.
عبيد (بمكر)**:** محمود؟
أم علية: بل مسعود.
فرج: أوَلم يذهب للمشغل بعد؟
أم علية:

بل ذهب إلى قصر السلطان
غافلني المتعوس وفر،
لم يترك إلا ورقة ... وبخط يده
يقسم فيها أن سيعود قُبَيل الظهر.

عبيد:

لم يترك إلا ورقة؟
وبخط يده؟ لكن ... لكن ...

فرج: لكن مسعود لا يكتب ... أقصد لا يقرأ.
عبيد: مسعود أمي يا أم علية.
فرج:

وإذن سيعيِّنه السلطان وزيرًا،
وسيحيا في رغد وهناء،
بل قد يتزوج من أهل القصر.

أم علية:

يتزوج؟ يا لليوم الأغبر!
وعلية بنتي ... من يتزوجها؟

رجل ١ (يتقدم منها)**:** ما مهر علية يا ست الكل؟
أم علية (منزعجة)**:** ما شأنك أنت؟

رجل ١:

أقصد أنك ذات جمال وخلق،
ولذلك فعلية مثلك،
وأنا لم أتأهل بعد.

أم علية:

فسدَت أخلاق العالم (تصرخ)
العالم ضلوا يا ناس،
مسعود يمضي للقصر وهذا النطع يريد علية!
لم تعُد الناس تخاف الله!

عبيد: قصد الرجل شريف يا ست الكل.
أم علية:

يا خيبة أملي فيك وفيهم
فوضت الأمر إلى الله.

(يدخل المنادي وخلفه الناس وهو يصيح.)

المنادي:

يا أهل البر انتبهوا!
أمر السلطان الأكبر سيف الدين
بمحاكمة الجاسوس التتري صِمْغار
علنًا بعد صلاة العصر؛
فلقد ثبتت تهمة قتل السلطان عليه
ولسوف تقام المشنقة هنا
بعد صلاة الظهر.

(يتحرك المنادي خارجًا.)

فرج:

كيف نحاكم من ثبتت تهمة قتل السلطان عليه؟
لم لا نشنقه فورًا يا ناس؟

أم علية:

لكن ماذا حدث لمسعود؟
أرجو أن يسلم لي،
كم أخشى أن يلحقه سوء.

عبيد:

بل ماذا حدث لمحمود؟
أرجو أن يأتي حتى يحكي ما شهد من الأحداث.

أم علية:

بل أنا ذاهبة له،
لا أقدر أن أصبر حتى يأتي،
وسنرجع منصورين بإذن الله!

فرج: فلتنتظري حتى يأتي الناس جميعًا.
أم علية:

ولماذا لا أذهب؟
سأواجه هذا السلطان
ماذا يا فرج اسمه؟

فرج:

لا أذكر يا أم علية،
ماذا يعني الاسم؟

عبيد:

علم الدين الباشقَردي؟ عز الدين الكُرجي؟
لا بل سيف الدين القشقار.

فرج: أحد القواد فحسب.
عبيد:

لا بل أحد القواد الأفذاذ!
اسألني فأنا حاربت معه
اسألني فأنا خضت الأهوال إلى جنبه
(يندمج في الخيال) في يوم الفزع الأكبر عدنا نركب مُهرَين
وعلى متن الريح ركضنا في صفَّين
(ينفعل) كشعاع الشمس أذاب سحاب الصيف الناصع.

أم علية (منزعجة جدًّا)**:** يا لهوي ماذا حدث ... عبيد؟
فرج: يكفي هذا يا فارس فرسان الأرض.
عبيد:

لم تسمع ما حدث إذِ انثال الفرسان ورائي
والرعد يجلجل في الأجواء كأن الساعة قامت.

فرج:

ستقوم الساعة إن لم تسكت
(صارخًا) يكفي هذا ولننظر ما نفعل حتى يأتي محمود،
وأرى أن نُخرج هذا الجاسوس الآن ... (يفحص قفل الدكان)
اسمع ... اذهب أيقظ مسعود.

أم علية: مسعود؟ هل هو نائم؟
فرج: هو بالمنزل نائم.

أم علية: وإذن فلأذهب له.

(تخرج.)

عبيد:

لم يكن القفل هنا بالأمس،
هو وضع القفل ومعه المفتاح.

(الجميع يفحصون القفل على باب الدكان.)

فرج:

بل هذا ليس بقفل الدكان!
من أين أتى هذا القفل المحكَم؟

(أثناء انشغالهم في جانب المسرح يدخل شهبندر مع حُسْنة من الجانب الآخر.)

حُسْنة: هذا هو سوق القلعة.
شهبندر: فلأذهب للساحل حتى أخبر باقي الملَّاحين.
حُسْنة: لكن مولاتي أمرتني ...
شهبندر (مقاطعًا)**:**

مولاتك مولاتك مولاتك!
أوَلم تتحرر نفسك من هذا القصر ومن فيه؟
نحن الآن بمأمن ... نحن الآن بمصر لا بالقصر.

حُسْنة:

أعرف ذلك يا شهبندر،
أعرف ذلك خيرًا منك ... لكن (تلمح فرجًا)
لكن (في دهشة وفرح) هذا فرج الحداد،
كان زميل أبي في الصنعة
أترى يذكرني الآن؟

(الجميع ينتبهون لوجود حُسْنة وشهبندر، فرج يفحص القفل وينظر من طرف عينه، يلتفت إليها.)

عبيد: من هذان؟

(يلتفت إليهما.)

شهبندر: أنا ملَّاح يا أسطى.
فرج: هذا عبيد وأنا ... فرج الحداد.
شهبندر: أهلًا تشرفنا وأنا ...
حُسْنة (مقاطعة):

أنا حُسْنة يا فرج ألا تذكرني؟
أنا بنت صلاح الدين الحداد.

فرج (يفيق من المفاجأة):

بنت الأستاذ؟ حُسْنة؟
لا يعقل ... إني أحلم!
قولي ... ماذا حدث؟ وكيف تركتِ القصر؟

عبيد: هل تعرفها يا فرج الله؟
فرج:

هي بنت صلاح الدين الأستاذ،
أمهر من دق السندان ... يرحمه الله،
أخذوها تعمل في قصر السلطان لدى خاتون
بنت الملك الأكرم،
كانت طفلة ... وهي الآن ... يا جَلَّ الله ...
هل هذا زوجك يا حُسْنة؟

حُسْنة:

هذا شهبندر ... يشغله البحر عن الدنيا،
وعن الدنيا تشغله الحرب.

فرج: مع من تبحر يا ريس شهبندر؟
شهبندر: أبحر مع تاج الملَّاحين الريس عسكر.
عبيد:

الريس عسكر؟ إني أعرفه منذ سنين،
كان يقيم بباب الخلق ... وله بيت في الدرب الأحمر.

شهبندر:

تعرفه؟ (فرحًا) قد أعطاني هذا البيت
أقصد أني ابتعته ... حتى أتزوج فيه.

حُسْنة (غاضبة)**:** في المشمش.
شهبندر: حُسْنة ماذا تعنين؟
حُسْنة: أعني أنَّا لن نتزوج أبدًا!
شهبندر: هذا كلام غاضبة!
حُسْنة: لن أعرف الهناء طالما انشغلت بالتتار والصراع والحروب والدمار.
شهبندر:

وكيف ننسى أن ثَم غاصبًا يريد أن يجتاح مصر؟
احكم عبيد بيننا
لقد تركنا القصر عندما تأزمت أمور القصر،
والآن قد سمعنا في الطريق أن حاكم الديار قد قُتل
وأن جاسوس التتار قاتله.

حُسْنة:

أليس هذا يا عبيد من شئون الحاكمين؟
ماذا يضيرنا لو مات سلطان صغير أو قُتِل؟

شهبندر: ماذا يضيرنا؟
حُسْنة: قصدت أننا لا شيء في يدنا.

شهبندر:

كيف ونحن الناس؟
من يزرع الحقول غيرنا؟
من يصنع الثياب والسلاح غيرنا؟

حُسْنة:

لكننا لا شيء في يدنا،
الحكم في يد المماليك الكبار فوقنا.

عبيد:

صدقت يا بنيتي
فهم يحمون أرضنا وعرضنا،
وهم لنا درع الحياة.

شهبندر: لكنهم قد يخطئون!
عبيد: ونحن قد نخطئ!
فرج: من لا يخطئ ليس بإنسان.
عبيد: وبذاك قضى الرحمن!
فرج: لا تشغل بالك بأمور الدولة.
عبيد:

اذهب للريس عسكر فاستأذن
وارجع وتزوج حُسْنة.

فرج: ماذا يعنيك إذا كان السلطان هو الأكرم — يرحمه الله — أو كان الكرجي أو كان الأفرم؟
عبيد:

بل هو سيف الدين القشقار
مغوار لا حد لبطشه.

شهبندر (في يأس):

أوَهذا سوق القلعة؟
من نصحتنا غازية مولاتك أن ننتظر به؟

حُسْنة: قالت إن لها أصحابًا.
عبيد: غازية بنت الباشقَردي؟
حُسْنة: تعرفها أنت؟
عبيد:

أعرفها؟ قد حِكت ثياب أبيها
وثياب حريم القصر مئات المرات.

شهبندر:

أفهذا هو سوق القلعة؟ (ثائرًا)
قد كنت أظن بأن السوق التهب لمقتل سلطان الدولة،
قد كنت أظن بأن الناس تموج تضج تثور تفور تمور ...

فرج (مقاطعًا):

مهلًا مهلًا
ماذا يعنينا من هذا أو ذاك؟
بل ماذا نعني نحن إلى الحكَّام؟
الحاكم يحيا في دنيا يصنعها بالسيف البتار،
وسواء كان الأكرم أو سيف الدين القشقار
فالسيف المصلت واحد.

شهبندر:

لكننا أهل البلد؟
وكل ما فيها يخصنا.

فرج:

يا صاحبي أفق،
على الأبواب من ديارنا تتار،
ونحن بين شقَّي الرحى
نتابع الذي يقوله الحكَّام
ونسمع الذي يحكونه عن التتار،
لكننا أسرى
لا نستطيع أن نصد صولة الكبار
أو أن نقول لا ... حتى إلى الصغار.

عبيد: بالأمس مضى محمودٌ للحاكم يطلب بعض الأخشاب.
حُسْنة: مثل الجاسوس.
فرج: لا فالجاسوس هنا.
عبيد: أنا أحكي عن محمود النجار.
حُسْنة: والجاسوس تخفَّى في زي النجار.
فرج: هل يعقل أن يحدث هذا؟
عبيد: محمود ذهب بهيئته دون تَخفٍّ.
حُسْنة:

محمود؟ هل هو من يعلن عن نفسه
بعبارات لا تتغير؟
نجار من حي القلعة،
رجل من أهل الصنعة؟

فرج: هذا هو محمود النجار وتلك عبارته الخاصة.
عبيد: قول لا يخطئه إنسان!
شهبندر:

هل يعني ذاك بأن رجال القصر
ظنوه الجاسوس؟

حُسْنة: بل هذا هو ما حدث لمحمود.
فرج: أرأيته يا شهبندر؟
حُسْنة: بل إنني رأيته وسمعته.
فرج: محمود في خطرٍ داهم.
عبيد:

وعلينا أن ننقذه الآن
نشرح للسلطان الخطأ الفادح
ونعود به في الحال.

فرج: أتظن الأمر بهذا اليُسر؟
حُسْنة:

محمود محبوس في برج القلعة،
وأنا أعرف كل الحراس.

عبيد:

بل قد يحتاج الأمر إلى جمع الناس.
(إلى الرجال) يا أهل الصنعة!
(يلتفُّ الرجال حوله.)
محمود محبوس في برج القلعة،
ولسوف يواجه حُكم الموت إذا لم نمضِ إليه.

(حماسٌ شديد من الرجال.)

رجل ١: لبيك عبيد.
رجل ٢: وأنا ورجالي من خلفك.
رجل ١: ومتى نمضي؟
فرج:

انتظروا حتى نتحقق،
لا بد من الرأي الصائب في هذا الأمر وإلا ...

شهبندر:

رأي عبيد صائب،
والحل الأمثل أن نمضي فورًا؛
إذ إن السلطان إذا شاهد حشدًا
لم يملك إلا أن يرضخ.

رجل ١: سأنادي كل رجال المخبز.
رجل ٢: ولنتسلح بهراواتٍ ضخمة.
عبيد: وسآتي بالسيف البتار من الدكان.
فرج: من منا سيحادث ذاك السلطان؟
عبيد:

أنت الأكبر يا فرج فَقُدنا
وتكلمْ باسم الكل،
(يكون الرجال قد تجمعوا بأعداد غفيرة.)
يا أهل الصنعة!
يا فخر شباب البلد الأمجاد!
هل ترضون بأن يتكلم فرج باسم الكل؟

الجميع: طبعًا نرضى ... نرضى طبعًا.
فرج:

سيكون دليلي شهبندر،
وكذلك حُسْنة ... لكن ...
أفلا نُخرج هذا الجاسوس الآخر من دكان عبيد؟

عبيد: نخرجه ونقدمه للسلطان ... بدلًا من محمود.
حُسْنة:

بل هو جاسوس السلطان عبيد
مولاتي غازية قالت لي عنه،

فهو يزودها أيضًا بالأخبار
(تضحك) لا خوف إذن منه.

فرج: أخرجه إذن ... هيا.
عبيد: ليس معي مفتاح القفل ... من أين أتى مسعود به؟
فرج: أنا حدادٌ أكسره لك إن لم يفتح ...

(يعالج القفل ويفتح الدكان فيجد مسعودًا مكممًا، يزيلون الكمامة والقيود.)

الجميع:

مسعود؟ مسعود؟
ماذا تعمل في هذا الدكان؟

مسعود: غافلني الملعون وقيدني ثم رماني وهرب.

(عبيد يدخل الدكان ويخرج بسيفه.)

عبيد: هذا هو سيفي البتار.
فرج:

لا بأس إذن ... هيا يا مسعود بنا!
هيا يا شهبندر ... هيا يا حُسْنة!
يا أيها الرجال هيا ... ولن تمر ساعة من الزمانْ
حتى نواجه السلطان.

(إظلام)

المشهد السابع

(المنظر هو قاعة توحي بالسجن، نافذة حديدية عليها قضبان وحراس في ملابس سوداء، ومحمود جالس في الظلام، يقوم ويتقدم من مقدمة المسرح.)

محمود:

هذا هو الليل الذي لا صبح له؛
ليل الرزايا والبلايا المرسلة،
هل جئتَ يا محمود هذا القصر طوعًا
وهْو عرين الأسَدِ؟
هل جئتَ هذا الجحر تسعى
بين أفاعي البلدِ؟
لم يبقَ إلا أن تشد رباط قلبك
حتى يعود الصمت في جنبات نفسك.

(تدخل غازية ملثمة.)

غازية (ترفع اللثام)**:** هيا يا محمود بنا.
محمود: بل أنا صِمْغار يا سيدتي.
غازية:

إني غازية يا محمود ألا تعرفني؟
غازية المصرية ... كيف نسيت؟

محمود: أنا لا أنسى يا مولاتي ... لكني لا أعرفك البتة.
غازية:

من ساعات معدودة
كنا نتكلم عن أحوال الدنيا،
بل إني أوحيتُ إليك بأن تزعم أنك صِمْغار
الجاسوس التتري ... انظر وجهي ... أنا غازية.

محمود:

آه! غازية بنت الباشقَردي!
أهلًا بك يا مولاتي ... هذا شرف جِد عظيم،
لا أملك أن أكرمكِ بهذا الخان المتواضع.

غازية:

هذا هزْل في غير أوانه،
انهض يا محمود.

محمود: لكني صِمْغار يا سيدتي.
غازية:

عاد الجاسوس وأكد لي أنك محمود،
لا يعني ذلك أني كذبتك!
لكنا نحيا في زمن منكود
يصعب أن نعرف فيه الحق من البهتان.

محمود: إلا إن عاد الجاسوس!
غازية: هيا يا محمود بنا.
محمود: ماذا تبغي بنت السلطان؟
غازية:

إنك تعلم أني مصرية

أفضيت إليك صباح اليوم بهذا السر،
بل بحت به أيضًا لأمير من أمراء الحكم،
ينسبني الناس إلى عمه
ركن الدين الباشقَردي.

محمود:

ماذا يعنيني إن كنت بحقٍّ بنت الباشقَردي؟
أو كنت من البسطاء ... مثلي ... مثل عبيد وفرج،
أو مسعود أو أم علية.

غازية: أنا يا محمودٌ مصرية!
محمود:

مولاتي ... إنك تحيين بهذا القصر،
ولديك مماليك وجنود وخدم،
هل يعني هذا أنك مصرية؟

غازية:

لكني عشت بقلبي طول الزمن مع البسطاء،
لم أتزوج مملوكًا أو قائد جند،
بل عشت أمني النفس بيوم موعود.

محمود:

بالثأر من الأعداء؟
في دهليز القصر المظلم.

غازية: بل بالعودة للدنيا يا محمود.
محمود:

ولهذا كنتِ تودين محالفة الجاسوس التتري ... صِمْغار؟
لا يا غازية الحلوة،

إن المصري الحق ... (تنهار غازية وتبدأ البكاء)
لا يضع يدًا في يد تتري
حتى ينتقم لقتل فرد مهما كان،
قد كنت مفيدًا لك في ثوب التتري
وأنا الآن مفيد في ثوب المصري.

غازية (وهي تنهنه):

اغفر لي يا محمود،
لم أك أدري ما أفعل!
مثل غريق يتعلق في اليم بقشة
(تتماسك) ضيعت حياتي أقرأ حتى شابت رأسي،
خِفت ضياع العمر وأحلامي كالطيف السارب،
لم أك أتصور أن يأتي قصر السلطان شجاع صنديد مثلك.

محمود:

بل لستُ سوى نجار يطلب بعض الأخشاب.
دنيانا يعزلها عن دنياكم ألف حجاب.

غازية:

لا تخذلني يا محمود الآن،
قف بجواري أنت وأهل البر،
لم يعد الحلم هو الثأر،
بل أصبح هدمَ الظالم ونهايةَ هذا العصر.

محمود (ساخرًا):

ويكون على رأس الحكم الموعود فتاةٌ تدعى غازية
يتزوجها رجل يدعى محمود؟

غازية:

قف بجواري يا محمود وحسب،
فلديَّ جنود وعتاد لا حد له،
ولسوف إذا خرج الناس على السلطان.

محمود:

نخلع سيف الدين القشقار؟
(يضحك ضحكًا شديدًا) ونولي مَن يا غازية بربك؟

غازية: لا أدري ماذا حل بنا!
محمود:

ماذا حل بمحمود النجار؟
محمود لا يجد الأخشاب
فأتى يطلب بعض الأخشاب الشاميَّة
من قصر السلطان الأعظم،
محمود لا يأبه لشئون الدولة والحكم الأدرم
وكما تعلم مولاتي ... محمود في السجن اليوم وقد يُشنق،
أم هل مولاتي لا تعلم؟
(صوت نفير في الخارج والحارس يعلن: مولاي السلطان سيف الدين.)
والآن أتى السلطان بنفسه.

غازية: لا بأس سأختبئ هنا.

(تخرج من بابٍ خفي، وعندها يدخل سيف الدين.)

سيف الدين (إلى الحراس)**:**

فليخرج الجميع ... هيا
(يخرج الحراس.)
والآن أجبني ... من أنت؟

محمود: مولاي عَجول.
سيف الدين:

هيا ... لا تُضع الوقت،
انطق من أنت تكلم.

محمود: مولاي على عجل ولديه مشاغل؟
سيف الدين (في نفاد صبر)**:**

اسمع يا صِمْغار ... أنا لست بهازل،
إن لم تفصح عن نفسك فورًا حطمتُ عظامك.

محمود: لكنك تعرف — فيما يبدو — أني صِمْغار.
سيف الدين (تتغير لهجته)**:**

أنت الذي أرسله التتار؟
قل لي فإنني أؤمِّنك!

محمود: فإذا قلت بأني صِمْغار؟
سيف الدين (يهمس)**:**

مبلغ علمي أن الرجل رسول لا جاسوس،
وكما تعلم نحن نجل الرسل ونكرمهم
(يضحك) لا تغضب من وضعك في المحبس ساعات محدودة،
فأنا أرجو أن أصرف عنك الأنظار
حتى تهدأ فتنة قتل السلطان.

محمود: لا أفهم شيئًا يا مولاي.
سيف الدين:

بل تعرف كل الأسرار،
وتأكد أنك إن حققت مرامي
فلسوف تنال نصيبًا من ذاك السعد القادم.

محمود:

مولاي إن ما تقوله لبالغ الغرابة،
فلست أعرف الذي ترمي إليه؛
إذ اتهمتني بقتل سلطان البلاد
حبستني ...

سيف الدين (مقاطعًا): لا تكترث بتهمة يسيرة كهذه.
محمود: بتهمة يسيرة عقابها الهلاك؟
سيف الدين:

بل سوف يبرئك القاضي ... لا تقلق،
قل لي ... ماذا قال لك السلطان؟

محمود: وإذا لم يقتنع القاضي؟
سيف الدين:

بل إن القاضي مقتنع وسعيد ... اسمع!
ماذا قال لك السلطان؟
هل أخبرك بما ينويه؟

محمود: لم يخبرني السلطان بشيء.
سيف الدين:

قل لي أنت إذن ... هل تنوون الحرب؟
قل لي حقًّا ولنتصارح.

محمود: بل قل لي أنت إذا كنتم أعددتم عدتكم للسلم.
سيف الدين (فرحًا):

بل نحن نؤكد أنا نبغي السلم،
قل للقوم لدَيكم إن السلطان القائم لا يبغي الحرب تمامًا،
مثل السلطان الراحل،

فحياة القوم هنا أثمن عندي من شن الغزوات المشئومة
وبمصر الآن صراعات لا بد لها من حسم.

محمود: فإذا حُسمَت أطلقتم ما في جعبتكم؟
سيف الدين:

كلا يا صِمْغار الأكرم!
فأنا لا أبغي الحرب على أي الأحوال،
ومرامي أن تبقى مصر بلاد هناء واستقرار.

محمود:

تقصد أن تبقى أحوال الدنيا والناس
وتظل على ما هي فيه الآن؟
هل هذا معنى الاستقرار؟

سيف الدين:

لا شأن لسلطان البلد بأحوال الناس،
فلقد ظلت آلاف السنوات على ما هي فيه،
لكنني أقصد أحوال الحكم،
هذا ما يشغلني الآن،
وإذا أكملنا خطوات السلم ... وتعاهدنا
ونبذنا أفكار الحرب
ساد السعد بمصر وانتشر الحب.

محمود:

في سوق القلعة يا مولاي
بنتٌ تُدعى أم علية.

سيف الدين (غاضبًا): ما لي ولأم علية؟

محمود:

صبرًا يا مولاي اسمعني،
أم علية يا مولاي ... ليست أمًّا لأحد،
تتصور أن لدَيها بنتًا،
وتريد لمسعود أن يتزوجها.

سيف الدين: ما شأني يا صِمْغار بهذا؟
محمود:

البنت تعيش بأحلام ملتاثة،
لا يجرؤ أحد أن يوقظها منها،
وكذلك لا يجرؤ مسعود؛
إذ يعمل نسَّاجًا في مشغل أم علية،
ويخاف إذا صارحها أو رفض الخطبة
أن يفقد مصدر رزقه.

سيف الدين: هل هذا ما تشغل نفسك به؟
محمود: وبقصر السلطان الراحل يا مولاي ...
سيف الدين: هو قصري الآن!
محمود: فاتنة لا حد لفتنتها تُدعى خاتون.
سيف الدين:

مهلًا يا صِمْغار تريَّث،
لا تذكرها بالسوء
فلسوف تُزَف إليَّ غدًا
في حفل تهتز له جنبات الوادي.

محمود:

واهًا لكِ يا خاتون المسكينة،
عاشت تحلم بالفارس ذي اللون الأسمر،
وتعيش خيالات نسجَتها من أطياف الشفق الوردي.

سيف الدين:

يا صاحبي أنت غريب
لا تعرف الأحوال في بلادنا،
حذارِ أن تشغل بالك
بكل ما تقوله النساء أو يفعلنه.

محمود:

لكن عبيدًا رجل يا مولاي!
وله أحلام وخيالات لا حد لها.

سيف الدين:

لا تشغل نفسك يا صِمْغار بهذا وبتلك،
أنت رسول ولديك رسالة،
عد لحظة أن يبرئك القاضي للقوم لدَيكم،
اشرح للقادة أنا سنمد حبال الود،
ونعاهدكم عهدًا لا يتزعزع
إن أنتم أخلصتم وصدقتم
فلسوف نصون العهد ونحمي السلم.

محمود:

لكني لا أعرف ما تنوي أن تفعل
بالقائد عز الدين ... والقائد علم الدين
وبغازية بنت الباشقَردي.

سيف الدين:

أتظن بأنهمُ سوف يشنون الحرب عليكم؟
لا يا صِمْغار تأكد أنهم لا وزن لهم.

محمود: أستقتلهم؟

سيف الدين:

أقتلهم؟ حاشا لله!
بل كل منهم سوف يدمر صاحبه.

محمود: يقتله؟
سيف الدين: يذبحه مثل كباش الأضحى!
محمود: حتى غازية؟
سيف الدين (مفكرًا بعض الشيء)**:**

من غازية تلك؟
(متذكرًا) غازية! آه! ليست تلك بذات أهمية،
إن شئت طحنت عظام البنت المسكينة في لحظة،
آهٍ يا صِمْغارٌ لو تدري ...

(يضحك.)

محمود: سمعت أنها ليست من المماليك الكبار.
سيف الدين:

ولا من الصغار يا صِمْغار
بل إنها يا صاحبي ... مصرية (يضحك ضحكًا شديدًا).

محمود (في سخريةٍ شديدة)**:**

لا أستطيع أن أصدق
وما الذي أتى بها إلى قصر الأمير؟

سيف الدين:

تصاريف الزمن (يضحك)
لسوف يأتي زمن المكاشفة،
والآن سوف أعود للقاضي لنعقد المحاكمة.

محمود: وإذا نجحنا ... أي مغنم أنال؟
سيف الدين:

خذ ما تريد،
ستكون مصر غنيمة مفتوحة،
أرسل إلي بما تريد وحسب.

محمود (ساخرًا)**:**

وهكذا يسود السلم والهناء
(يضحك ويمسك به) وتلتقي الأيادي ويُنشر الرخاء.

(يُسمع ضجيج من خارج المسرح، يدخل علم الدين ثائرًا.)

علم الدين: هذا الخائن ليس بصِمْغار.
سيف الدين (ذاهلًا)**:** ليس بصِمْغار.
علم الدين:

بل هو محمود النجار،
جاء رجال الصنعة من أصحابه
يسعون لإنقاذه.

سيف الدين: ذاك محال يا علم الدين.
علم الدين:

بل هو ما أحكي ... والحق أقول،
واجتمع وراءهمُ حشد من آلاف
لا أدري من أين أتوا!

سيف الدين: فرقهم يا علم الدين ... هدئهم!
علم الدين: لا أقدر أن أفعل شيئًا ما دام الملعون هنا!
سيف الدين: فرقهم ... هدئهم قلت!

علم الدين:

بل فاجمع كل مماليك القلعة؛
لتصد الهجمة بالحذق المعهود.

سيف الدين: ماذا تعني؟
علم الدين:

اخطب فيهم ... قل لهمُ إن المسئول هو الكرجي
أو غازية ... ونكون ضربنا عصفورين ... أعني ...

(تخرج غازية من وراء الستار تدخل فيتسمر الجميع.)

غازية: عصفورين؟ أحدهما غازية يا علم الدين؟
سيف الدين: غازية هنا؟ من أين أتت؟
غازية:

سري يعرفه الكل الآن!
ولسوف أواجه أهل البر!
اذهب يا سيف الدين وقل لهمُ إني قادمة مع محمود ... ومعي الجاسوس الآخر.

علم الدين: الجاسوس الآخر؟
غازية:

هيا يا سيف الدين!
هيا يا علم الدين!
اليوم سنشهد آخر حلقات المأساة،
وسيعرف كل الناس ... من هي غازية المصرية!

سيف الدين (هائجًا):

حقًّا؟ عشنا حتى تأمرنا امرأة مصرية،
ماذا أفعل بك؟ الموت عقاب هين،

يا حراس! ألقوا بالملعونة في جب القلعة؛
إذ إن حسابك عندي لم يأت أوانه.

غازية:

بل إن حسابك مع أهل البر،
ها هم قدموا للثأر،
ولسوف أذيع السر،
بل لن أحفظ أي الأسرار.

سيف الدين: صمتًا يا حمقاء.
غازية:

لم يعد الصمت يفيد،
إن كنتَ عقدتَ السلم مع الأشرار
فأمامك حرب لا تهدأ مع من خادعت وضلَّلَت.

سيف الدين: فلتخرس هذا الصوت على الفور.
علم الدين:

بل دعني يا مولاي أحادثها؛
فهناك أمور أرجو أن أعرفها منها،
اخرج أنت ومحمود للناس ... ولسوف نوافيكم في الحال.

(يدخل حارس ويصيح.)

الحارس: مولاي ... دخل المصريون القصر.
علم الدين: هيا يا مولاي ... هيا يا محمود.

(يخرج سيف الدين ومحمود.)

غازية:

من يضرب في الصحراء يُمنِّي النفس بواحة
وظلالٍ وارفة في حر الهاجرة المرة،

من يركب متن البحر يُمنِّي النفس بساحل
بالشط الممدود وبالنخل الباسق
وظباءٍ لاهية في زمنٍ غافل،
قد يصل الضارب في الصحراء
وقد يرسو من يركب متن البحر،
أما من يحيا في مصر
وهي الواحة والزمن الغافل
فبماذا تُشرق نفسه؟
وبماذا ينطق حسه؟
إلا بأمانيَ يرتعد لها القلب
أو يجفل من مَقدَمها اللب.

علم الدين:

أوَتلك أمانيكِ إذن يا غازية الحمقاء؟
أن يهجم أهل البر على القصر
ليهدوا درع الدولة والبر؟

غازية:

بل هذا يوم الثأر،
وسأكشف فيه لأهل البر
ما عاشوا زمنًا لا يدرونه؛
حتى أضع نهاية هذا العصر.

علم الدين:

هذا عبث يا غازية كفَى،
ما زلتُ على عهدي ... أنسيتِ العهد؟

غازية: الخائن لا عهد له.
علم الدين: أنسيتِ الخطر المحدق بك؟
غازية: أنسيتَ المصريين بساح القصر.

علم الدين: أوَلست من القصر إذن؟
غازية: بل أنا غازية المصرية.
علم الدين:

ولديكِ فؤادٌ مصري خائن
لا حق له أن يخفق بعد اليوم.

(يطعنها فتتهاوى.)

غازية:

أهلي في الساحة ينتظرون،
إن يُقتَل مصريٌّ يحيا في موقعه ألف،
هيهات إذن يا علم الدين،
سرِّي يعرفه غيري،
يعرفه محمودُ وشهبندر
يعرفه فرجٌ وعُبيدُ وحُسْنة.

(الحارس يدخل صائحًا.)

الحارس:

سد المصريون منافذ قصر السلطان،
القصر مُحاصَر ... أدرِكْنا يا مولاي!
القصر مُحاصَر.

غازية:

إن فؤادي يخفق في كل فؤاد يخفق في الساحة،
ولسوف ترى بعيونك ما عجزَت روحك عن إدراكه.

(تقع وتلفظ أنفاسها.)

(إظلام)

المشهد الثامن

(ساحة القصر، فرج يقف وخلفه عبيد وحُسْنة وبعض الرجال، وأمامهم يقف سيف الدين ومحمود، حراس ومماليك في كل مكان.)

سيف الدين: من أنتم؟ ماذا تبغون؟

(هرج ومرج ولغط ثم يسكتهم فرج ويتقدم من سيف الدين.)

فرج:

إنَّا لا نعرف من أنت ولكنا نسأل عن محمود!
محمود النجار ... هذا!

(ويشير إليه.)

سيف الدين:

مبلغ علمي أن الشخص الواقف بين يدينا
جاسوسٌ تتري يُدعى صِمْغار.

فرج:

بل هو محمود النجار،
لا يجهله أحدٌ منا،
ولتسأل من شئتَ من الناس.

(هرج ومرج ولغط.)

عبيد:

ولماذا لا يتكلم محمود بنفسه؟
انطق يا محمود تكلم ... قل لهمُ من أنت.

محمود: لو يسمح لي مولاي.
حُسْنة (إلى عبيد وفرج)**:** هذا سيف الدين القشقار.
عبيد (ثائرًا)**:** حتى لو كان السلطان.

(هرج ومرج ولغط.)

فرج (يحاول تهدئة عبيد)**:**

اسكت أنت
أنا أتكلم باسم جميع الناس،
قولوا يا ناس ... أوَليس الواقف ذاك
محمود النجار؟ (الجميع يقولون: محمود ... محمود ...)

سيف الدين:

أيًّا كان الواقف ذاك
فلقد علم من الأسرار
ما يجعلني أبقيه إلى جنبي في هذا القصر،
لا تخشوا شيئًا فأنا لن أؤذيه،
بل سأصونه.

فرج: ماذا تعني؟
سيف الدين: قد يتقلد منصب حكم ... مثل الحكَّام.
فرج: مثل الحكَّام؟
سيف الدين: بل يقدر أن يسمو فوق الحكَّام.

(تدخل أم علية مهرولة مع مسعود.)

أم علية:

ها هو مسعود يا محمود
هل جئتَ بخشب العفش؟
إنَّا حددنا موعد كتب كتاب البنت.

محمود: أوَهذا حق يا مسعود؟
مسعود:

لمَ لا؟ عُد معنا الآن،
فلقد أحضرتُ جميع رجال المشغل،
وانضم إلينا كل النسَّاجين وكل الغزَّالين
وجميع الصبَّاغين
هيا يا محمود بنا.

محمود: ومتى يوم الفرح الموعود؟
مسعود:

عند انتهاء العفش طبعًا،
لكن كتب كتابنا يومَ الخميس.

محمود: يوم الخميس غدًا؟
مسعود: كتب الكتاب فقط.
محمود: أما الدخلة؟!
مسعود: ما شأنك بالدخلة يا محمود؟
أم علية (تزغرد)**:** يا فرحة أم علية.
محمود (إلى سيف الدين)**:**

أفهمتَ إذن يا مولاي؟
سيُزَفُّ المسعود غدًا لخيال في رأس البنت المسكينة.

فرج (منزعجًا):

ماذا تقصد يا محمود؟
أوَلم نحلف ألا نفشيَ هذا السر؟

محمود:

بعض الأسرار لها عمر محدود،
وهي تعيش كمثل الوهم بلا جسد محسوس
أطيافًا كدخان الصيف،
أو كضباب في غبش الصبح المقرور
وكذلك يا مولاي ... سر شجاعتك المكنون!

سيف الدين: صمتًا (في حيرة وضيق) لا أدري ماذا حل بكم!
محمود:

غازيةٌ تعجب ماذا حل بمحمود،
وكذلك سيف الدين ... يسأل ما حل بنا!

سيف الدين: صمتًا قلت وإلا ...

(يدخل شهبندر مهرولًا مع بعض الرجال.)

شهبندر: جاء الملَّاحون لإنقاذ النجار.
حُسْنة: هذا شهبندر يا محمود.
شهبندر:

لم أذهب للساحل
إلا لاستئذان الريس عسكر
(يقترب من حُسْنة) حتى نتزوج يا حُسْنة،
لكن الملَّاحين انتفضوا لسماع الخبر الفادح،
وأصر الكل على أن ينقذ محمود النجار.

حُسْنة (في سعادةٍ غامرة): نتزوج حقًّا يا شهبندر؟

شهبندر:

بالباب حبيبةَ قلبي ألف محارب،
بل ضاقت بهم الساحات الكبرى،
أما النُّوتيَّة ... فبأيديهم شعلاتٌ متقدة،
ويُصرِّون على إحراق القصر بمن فيه
إن لم يخرج محمود إليهم.

حُسْنة: نتزوج في منزلنا بالدرب الأحمر؟
فرج: هيا يا محمود إذن.

(يتحرك محمود ناحية فرج فيستوقفه سيف الدين.)

سيف الدين (يغيِّر لهجته)**:**

اصبر لحظة!
لم يفهم بعض الناس هنا مرماي،
إن كان النجار بريئًا من قتل السلطان
أطلقْناه،
ولذلك سوف نحاكمه ونبرئه علنًا
حتى تسقط تهمة جاسوسيته والقتل
(يبتسم) وأنا لا شك لدَي بأن الرجل بريء
لكن لا بد من الحكم عليه بما يُرضي الله
فإذا كان بريئًا لم يذنب ...

شهبندر (مقاطعًا)**:**

من سيحاكم من يا سلطان؟
نحن لدَينا القوة ولدينا من يقضي في الأمر.

سيف الدين:

أتهددني ... يا مصري؟
أتُراك نسيت مكانك ونسيت مكاني؟

شهبندر: مطلبنا يا مولاي يسير.
فرج: أطلِق محمودًا وسنمضي.
شهبندر: لن يرضى أحد أن يمثُل محمود في محكمة لا نعرف قاضيها.
سيف الدين: هذا عصيانٌ يا ... فلَّاح!
شهبندر:

العصيان على ظهر البحر جريمة،
لكنا في البر ... وأنا ملَّاحٌ فلاح
أملك أن أعصي من لا طاعة له!
الطاعة يا مولاي السلطان
واجبة للحاكم إن بايعه الناس،
وبدون البيعة لا طاعة لك.

سيف الدين (ثائرًا): يا حُرَّاس.
شهبندر (يضحك):

لن يسمع أحد صوتك يا مولاي
فرجالي قد حبسوا كل مماليكك
ومماليك الأمراء ... في مخفرهم،
(يتنمر) ورجال البحر أشدَّاء
إن صِحتُ بهم هجموا بل دكوا القصر على من فيه.

(يدخل علم الدين وعز الدين وخاتون.)

سيف الدين (تخونه شجاعته): أدركني يا عز الدين!
علم الدين:

بل لا تقلق يا مولاي!
قُتِلَت غازية الخائنة بمحبسها؛
إذ كانت تتآمر لهلاك السلطان.

سيف الدين: ولماذا جئتَ بخاتون؟

علم الدين: دع لي يا مولاي أمور الدولة هذا اليوم.
شهبندر:

هيا يا محمود بنا،
لا شأن لنا بأمور القصر.

علم الدين (في لهجةٍ خطابية):

فليذهب محمود!
يا أهل البر!
قد أمر السلطان بإخراج الخشب المخزون،
وتكرَّم وتعطَّف وتنازل فعفا
عن كل الأقوال وكل الأفعال المهترئة
من محمود ... أو من شهبندر
أو من أيٍّ منكم،
ها قد جاءت خاتون عروس السلطان
(لا أحد يرد، همهمات بين المصريين.)
لم لا أسمع تصفيقًا؟ لم لا أسمع آيات الشكر؟
أين الشاعر يا عز الدين؟ هيا احتفلوا برجوع النجار إليكم
احتفلوا بزوال الغمة
وزواج السلطان القائم سيف الدين ... من خاتون!
أين الشاعر يا عز الدين؟ هيا ... هذا وقت الفرحة والأفراح
(لا أحد يرد فيثور.)
هيا قلت لكم ... هيا!

محمود:

أترى يا علم الدين؟ لم تعد الناس تصدق،
لا شك بأنك أمهر مَن ناب عن السلطان
أيًّا كان السلطان ... كنتَ النائب،
ولسوف تظل تنوب عن الحاكم

وتدبر خطط النصر وأوهامه
حتى آخر عمرك،
لكنك يا علم الدين ... لا تعرف أهل البر،
لم يأتِ أولئك وبيدهم شعلات النار الموقدة الحمراء
كي يحتفلوا،
بل قد فاض الكَيل بهم
الفرح محالٌ يا علم الدين
فرَحُ امٍّ علية ... إذ لا توجد في الدار علية
واهًا لكِ يا أم علية ... هل يقدر أحد أن يوقظها؟

فرج: اسكت يا محمود.
عبيد: نحن تعاهدنا يا محمود.
محمود:

وتعاهد معنا مسعود ألا نفشي سر البنت المسكينة،
لكنْ أم علية تعرف،
وعليها أن تقبل ما تعرف لا أن تلهث خلف سراب.

أم علية (منهارة): ماذا تعني يا محمود؟
محمود: أعني أنك ما زلتِ صغيرة.
أم علية (تبكي): وعلية يا محمود؟
محمود:

لا توجد في الدار علية،
لكن من يدري!
أفلا يمكن أن تأتيَ في الغد أو بعد الغد؟
هذا محتوم يا أصحاب؛
إذ إنَّا فتَّحْنا أعيننا،
أما خاتون المسكينة
فلسوف تظل حبيسة وهم الفارس ذي اللون الأسمر.

علم الدين:

إنَّا أطلقناك فعد يا محمود،
هيا ... وأمرْنا بالأخشاب بأن ...

محمود:

لن تجدي أخشابك في تضميد جراح الناس؛
إذ إن جراحهمُ أعمق!
ومصائبهم تكمن في عيشهمُ في هذا العصر.

علم الدين:

قلتُ لك اغرب عن وجهي!
عُد للسوق وخُذ أصحابك.

محمود: ويظل على رأس الدولة هذا الثالوث الأحمق؟
علم الدين: محمود تعقَّل.

(يدخل صِمْغار الجاسوس التتري في زي نجارٍ مصري.)

صِمْغار:

أين السلطان أنا عاوزه،
إني نجارٌ مصري وأُجيد العربية
(يضحك محمود وتضحك حُسْنة.)
أين السلطان؟ ورُّوني أين السلطان؟

محمود: سلطان البر قضى يا سيد صِمْغار.
صِمْغار: قضى ماذا؟ قل لي؟
محمود: سلطان البر قضى نحبه.
صِمْغار (حائرًا)**:** قضى ماذا؟ لكن أين يكون الآن؟
محمود: في القبر يحاسبه ملَك أو ملَكان.
صِمْغار: ملِك ويحاسبه ملكان؟

محمود: اسمع يا صِمْغار ... قد جئتَ إلينا بعد فوات الموعد فاسكُت.
صِمْغار:

صِمْغار؟ صِمْغار؟ من صِمْغار؟
إني نجار وأجيد اللغة العربية.

محمود:

قل للتتار إن سلطان البلاد قد قُتل،
وقل لهم: القاتل الأثيم يحكم الديار،
وقل لهم: الحاكم الجديد خائر القوى ضعيف واهنٌ سفِيه،
خذوه يا حراس من هنا فلن يزيد عِلمه عمَّا سمع!
(يأخذه الحراس بين دهشة الأمراء.)
والآن سوف أحكي يا عُبيد ما سمعْت.

سيف الدين: صمتًا! هذا أكثر مما يحتمل الإنسان.
محمود: الواقع أن القاتل لم يبرح هذا القصر.
سيف الدين (صارخًا)**:** صمتًا!
محمود:

ولستَ أنت سيف الدين ... لا،
فلستَ تستطيع حمل السيف!
لكن خادمك المطيع عزَّ الدين ...

عز الدين (مقاطعًا)**:** يكفي هذا يا محمود.
محمود:

أحلامك البلهاء يا عبيد تبتدي هنا ... وتنتهي هنا!
هل خضتَ أهوال الحروب في معية السلطان ... سيف الدين؟
نازلتَ فرسان التتار في معية الكماة من أمثاله؟
إن كنت تعرف الذي عرفتُه ما قلتَ يا عبيد كلمة كهذه
من ساعة أو بعض ساعة.

عز الدين: ماذا تبغي يا محمود؟ ... اسكت.
محمود:

جاءتني في السجن امرأة،
وحكت لي قصة ذاك المارد،
قصة مفتول العضلات المتباهي سيف الدين،
وحكَت لي لحظة أن واجه سلطان الدولة يرحمه الله،
بل كيف ارتعد وكيف بكى ... كان يواجه وهمًا أضناه،
وتخاذل ساعده الأيمن والسلطان يقهقه،
حين تقدَّم عز الدين فعاجله بالخنجر.

سيف الدين (صائحًا): هذا كذبٌ فاضح.

(يتقدم منه فيتراجع.)

محمود:

هذا هو مَن ملأ الدنيا بضجيجٍ لا يهدأ
عن حرب التتر وأهوال الروع.

سيف الدين (منهارًا): غازيةٌ كذَّابة.
محمود:

إن الذي تصدَّى للتتار يا عُبيد هم جنودنا المجالدون الصامدون،
أما الذي تراه ها هنا فرعديدٌ مُسالم،
مثل الذي سبقه،
هذا يريد السِّلم والأمان،
وذاك ينشد السلامة،
إن انتصارنا على التتار يبتدي هنا وينتهي هنا،
بل أي حرب ذات أضراس وطحن تبتدي هنا.

علم الدين: لن أسمح للمصري بهذا اللغْو.

محمود:

ألهذا أغمدتَ الخنجر في صدر امرأةٍ عزلاء؟
لم تقدر أن تتحمل كلمة حقٍّ من مصرية؟
ولماذا قُتِلَت غازية المصرية قل لي؟
أتُراها خانتكم حين أحبَّت هذا الوطن الغالي؟

علم الدين: لن أقبل أن تَعرِض لاسمي.

محمود:

ولماذا يا مَن تطمع في السلطان
وتحيا كالدِّيدان ... ذليلًا ترقص للسلطان
كيما تلدغه إن سنحَت فرصة.

علم الدين:

مولاي هذا الغِر قد تطاول!
ولم يعد في وسعنا إلا الرجوع عن غفراننا.

محمود:

غفرانكم ... أسطورة القرون!
لا يغفر الذنوب إلا الله فافتحوا عيونكم.

سيف الدين: فليُقتل فورًا.

محمود:

لا بأس، بشرطٍ واحد؛
أن تقتلني أنت.

(هرج ومرج ولغط يتقدم شهبندر.)

محمود:

لا تقلق يا شهبندر
فلدَيَّ ذراعٌ صلبة ... وسألقي في قلب الرجل الرعب.

خاتون: البطل المغوار!
محمود:

واهًا لكِ يا خاتون!
ليتكِ ما جئتِ ولا رُمتِ الفارس ذا اللون الأسمر.

(علم الدين يتهامس مع سيف الدين.)

شهبندر: لن نقبل أن يُؤذَى محمود.
فرج: ولسوف يعود إلينا.
عبيد:

بل دعني أتصدَّى للرعديد
وسأبني جيشًا لا آخر له.

محمود: لن تبنيَ شيئًا حتى يتهدَّم هذا الصرح!
عز الدين (صائحًا):

تُرى نسيتُم أيها الرعاع أنكم بحضرة السلطان؟
إني باسمك يا مولاي ... أقتل هذا الوغد الكافر
(يطعن محمود، على الفور يخرج شهبندر.)
أما أنتم فلكم في الدولة ألف حساب،
والجاهل من يجهل قوة هذا الخنجر.

محمود (وهو يغالب الألم):

لقد طعنتَ شعبًا كاملًا يا أيها الأثيم،
لقد طعنتَ هؤلاء الناس ... ولن يُولِّيَ النهار حتى يعرف التتار
أننا وُلِدنا من جديد.

(يعود شهبندر لاهثًا.)

شهبندر:

قد أشعل النُّوتية الضرام في المداخل،
النار في كل مكان.

(هرج ومرج.)

محمود:

امضوا أنتم ودعوني (في ألم)
النار عذاب لا يملكه إلا القهار.

شهبندر: ألسنة اللهب التهمَت مخزن أسلحة السلطان ومخزن أخشابه!
محمود (في سكرات الموت.):

لا تخش على الأخشاب (يبتسم بسمةً مريرة)
فغدًا تأتي سفن الأخشاب محملة
بقيادة شهبندر،
وغدًا يخرج جيش المصريين إلى بر الشام؛
ليرد غزاة التتر ويُعليَ شأن الإسلام.

(يتهاوى ويلفظ أنفاسه.)

شهبندر (في ألم):

هذا وعدٌ أقطعه يا محمود على نفسي،
ولسوف يحارب في الصف عبيد وفرج،
ولسوف يحارب مسعود،
ولسوف يحارب كل رجال البر،
حتى إن حملوا أسلحة من خشب الموسكي.
(في خلفية المسرح ألسنة النار تملأ الدنيا بلونٍ أحمر.)
(إلى المماليك) أما أنتم فلديكم لا شك جحور كالفئران،
فليهرب من يرجو منكم عَيش الفئران

(هرج ومرج في صفوف المماليك.)
أما إن سقط القصر عليكم،
أو كان دخان النار كثيفًا
فاختنق البعض ومات البعض من الهلع الأكبر
أو كنتم للنار وقودًا فاستعرَت منكم وبكم فالعاقبة سواء في أعيننا،
لن نبكيَ سيف الدين وعلمَ الدين وعزَّ الدين،
بل لن نبكيَ خاتونَ المسكينة،
فالقصر سواء في أعيننا،
أما صِمْغار فسوف يعود بأخبار لم يتوقعها،
هيا يا حُسْنة
(يتقدم ممسكًا يدها إلى مقدمة المسرح.)
في لهب الليل سيولد صبح الغد
وغدًا تصحو القاهرة على أنغام المَولِدْ.

(تعلو ألسنة النيران ويملأ المسرح دخانٌ كثيف، بينما يثبت الممثلون في أماكنهم ويهبط الستار.)

(ستار الختام)

هنـــداوي